

# العرب والصين

علاقات ودية وتبادل سفارات - وثيقة صينية نفيسة من عهد سلالة منغ  
«الكامل في وصف سواحل المحيط» تأليف ما هوان ١٤٣٣م - ٨٣٧هـ

ابراهيم خوري

خلفت سلالة منغ الصينية سلالة ييوان المغولية ، ودام حكمها قرنين وثلاثة أرباع القرن من سنة ١٣٦٨ م / ٧٧٠ هـ الى ١٦٤٤ م / ١٠٥٤ هـ . وبلغت الصين في أيام أباطرتها أوج الازدهار السياسي والاقتصادي والعمراني داخليا ، ووصل نفوذها الى أقاصي المعمورة خارجيا ، لا سيما في عهد الامبراطور الثالث يونغ - لو ( ١٤٠٣ م / ٨٠٦ هـ - ١٤٢٤ م / ٨٢٨ هـ ) الذي قامت أساطيله الجبارة بحملات بعيدة متعاقبة ، أخضعت جميع السلطات الحاكمة على سواحل « المحيط » (١) وفي جزره ، من الصين الى افريقية الشرقية ، مروراً بفيتنام ، فكمبودية ، فاندونيسية ، فبنجالة ، فسيلان ، فالهند ، فجزيرة العرب ، فالسومال . وقاد تلك الحملات شنغ هو ، ودون ما هوان أحداثها ، ووصف البلدان التي توجهت اليها في كتاب سماه « الكامل في وصف سواحل المحيط » وخص فيه ظفار وعدن وهرموز ومكة بأخبار وأوصاف دقيقة جداً ، ضمّنها أربعة من فصوله ، وتحدث فيه أيضاً عن العرب في جاوة وعن الممالك المسلمة في ملاقة وعاروه وسيموديره وأتجه ، وعن شؤون المسلمين ومساجدهم في بنجالة وكشي وكاليكوت وجزر مالديف ولاكديف . وأكثر هذه المواضع الطريفة ، لم يتطرق اليها الجغرافيون العرب ، فيجدر بنا أن نطلع على مضمونها بعد التعرف على الكاتب وكتابه وعلى قائد الحملات وحملاته .

أولا - ما هوان وكتابه

١ - حياة ما هوان Ma Huan :

لا تتضمن المصادر الصينية الا النزر القليل عن حياة ما هوان . فأستره ، الملقبة « ما » عاشت في كويشي في مدينة شاو هسنغ ، على مسافة ٢٤ ميلاً تقريباً الى جنوب شرق هنغ شو ، وعلى ٧ أميال عن الشاطئ الجنوبي لخليجها الذي كان يعد أحد مراكز الملاحة الصينية الرئيسة في ذلك العصر .

ويرجع أن عمره لم يكن يقل عن خمسة وعشرين عاماً عندما عُيِّن لأول مرة موظفاً في الحملة الصينية الرابعة (١٤١٣ - ١٤١٥)، وربما كان يبلغ الثمانين عندما نشر كتابه سنة ١٤٥١. بالتالي يُقدر أنه ولد حوالي ١٣٨٠. وكان ماهوان خطاباً، على حد قوله، وهذا يعني أنه سليل أسرة متواضعة. لكنه تلقى حتماً ثقافة جيدة في أحد الكتاتيب الصينية (٢) فقد عرف الكلاسيكيين الصينيين، وقرض الشعر، وطالع الكتب البوذية. واعتنق الاسلام في وقت مبكر. واتخذ لقب تشونغ تاو. الا أن انشاءه جاء بسيطاً وبعيداً عن الأساليب الأدبية.

ولم يشر أحد البتة الى مهنته. ولا بدأه وقع في شبابه على شخص واسع الثقافة علّمه الخط العربي واللغة العربية أو الفارسية، أو ربما اللهجة العربية العامية التي كان استعمالها شائعاً في التجارة على ألسنة البحريين والسفار، في البنادر والسفن، من الصين الى البحر الأحمر. فصار ترجماناً ماهراً. ولهذا السبب بالذات، تم تعيينه مترجماً رسمياً، وألحق بمساعدتي شنغ هو، عندما تلقى هذا الأخير، سنة ١٤١٢، أمراً امبراطورياً بقيادة الحملة الذاهبة الى جزيرة هرموز. فكانت تلك البعثة باكورة أسفاره الثلاثة الى بلدان أجنبية عديدة في حاشية شنغ هو. وتقدر سنه آنذاك بحوالي اثنين وثلاثين عاماً.

وقام ماهوان وزميل له يدعى كو-تشونغ-لي، برحلات محلية داخلية في الأصقاع التي حطت فيها الأساطيل الصينية، ودونا كل ما شاهداه، وحافظا على مذكراتهما حتى عودتهما الى الصين. ومرا في الحملة الرابعة في شمبا وجاوة وبالمبانغ وملاقة وسيموديرة وسيلان وكاليكوت وهرموز.

ولما رجعت هذه الحملة الى الصين، بادرماهوان الى كتابة مشاهداته ومشاهدات رفيقه في مصنف أنجز معظمه في مدة قصيرة، ووضع مقدمته (١٤١٦)، وصدره بقصيدة تغني فيها بالتقاء الشرق والغرب ثم أجرى عليه بعض الاضافات في وقت لاحق. فكان أول كاتب من أتباع شنغ هو يصف البلدان الأجنبية التي اعترفت بسؤدد الصين. وفي هذا التاريخ بالذات، شرع هو وكو-تشونغ-لي يذيعان ما جمعاه من طرائف عن أراضي ماوراء البحار في جميع الأوساط.

ولم يصحب ماهوان الحملة الصينية الخامسة لأسباب لا تزال مجهولة. الا أنه رافق الحملة السادسة (١٤٢١ - ١٤٢٢) التي عرجت على ملاقة وسيموديرة وسيلان وكاليكوت وهرموز وظفار وعدن. فكانت بعثته الثانية مع شنغ هو. ويرجع أنه أضاف وصف ظفار وعدن الى كتابه بعد عودته منها الى الصين سنة ١٤٢٢.

كذلك التحق بحاشية شنغ هو في الحملة السابعة (١٤٣١ - ١٤٣٣)، وقام فيها برحلتين قادته الأولى الى بنجالة وساقته الثانية الى مكة.

١ - ففي رحلة بنجالة، ذهب هو ونغ باو من الصين الى شيتاغونغ مباشرة في اسطول فرعي، وزارا عدة مدن، ثم انتقلا منها الى كاليكوت.

٢ - وفي الرحلة الى مكة ، دُرِج اسمه في قائمة المبعوثين السبعة الذين كلفهم هونغ باو بالسفارة . وحرص ماهوان المسلم على زيارة الأماكن المقدسة في جزيرة العرب . وغادرت بعثته كاليكوت في شهر تموز سنة ١٤٣٢ ، ووصلت الى مكة في شهر تشرين الأول ، بعد ثلاثة أشهر (٣) ، وأقامت حوالي ثلاثة أشهر أخرى في مكة ، وكرت راجعة الى كاليكوت في شهر كانون الثاني ١٤٣٣ . ولما عاد ماهوان الى الصين ، أضاف وصف مكة الى كتابه .

ولا ريب أن صديقه كوو - تشونغ - لي أعانه في اعداد كتابه ، الا أن ماهوان بالذات ووحده كان يوقع جميع الوثائق الرسمية . واكمل مصنفه بين ١٤٣٤ - ١٤٣٦ على الأرجح ، أي عندما ولد أحمد بن ماجد ، وقبل ربع قرن من نظمه « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » التي تتناول المواضيع ذاتها ( ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م ) .

#### ب - كتاب ماهوان : « الكامل في وصف سواحل المحيط » Ying-Yai Sheng-lan :

يتألف هذا المصنف من مقدمتين وقصيدة ومتمن و « مستدرك » .

فالمقدمة الأولى ديجها ماهوان سنة ١٤١٦ . وذكر فيها تعيينه ترجماناً رسمياً لوثائق الحملة الرابعة ، وجمعه معلومات عن البلدان ، وتدوينها في كتاب عنوانه : « الكامل في وصف سواحل المحيط » . وختمها بقوله : « حرره ماهوان ، حطاب الجبال في كويشي » .

وضع المقدمة الثانية ماشنغ سنة ١٤٤٤ . وجاءت كلها ثناءً رخيصاً على الامبراطور يونغ لو ، وقائد الحملات شنغ هو ، ومصنف الكتاب ماهوان ، المشار اليه بلقبه الأدبي أي اسمه المستعار : « الأستاذ تسونغ تاو ما » . ولا يعرف شيء عن ماشنغ .

والقصيدة لماهوان . وفيها يفاخر بمآثر الحملة الرابعة - ومنها نشر الحضارة الصينية عند الأمم الأخرى وبتسهيلها التبادل التجاري بين الشرق والغرب ( الهند والعرب ) . وقد نُظمت سنة ١٤١٦ .

و « المستدرك » ل « كوو » ، وهو مراقب ومفتش امبراطوري . وكان يمكن جعل كلمته مقدمة ثالثة ، لأنها تكرر ما قيل في المقدمة الثانية . وتسمي ماهوان باسمه المستعار « الأستاذ ما تسونغ تاو » وزميله « الأستاذ كوو - تشونغ - لي » ، وتؤكد أنهما « يعتنقان دين المربع السماوي ( مكة ) في المناطق الغربية » . فهل كان ماهوان ورفيقه شيخين ؟

أخيراً ، وزع ماهوان أخباره وأوصافه على عشرين عنواناً على الوجه التالي :

بلاد سيلان	بلاد شمبا
بلاد كيلون	بلاد جاوة
بلاد كشي	بلاد السماء القديمة أو بالمبانغ
بلاد كاليكوت	بلاد سيام
بلاد جزر مالديف ولاكديف	بلاد ملاقة
بلاد ظفار	بلاد عاروه

بلاد عدن  
بلاد بنجالة  
بلاد هرموز  
بلاد المربع السماوي أو مكة

بلاد سيموديرة  
بلاد ناقور  
بلاد ليتاي  
بلاد لامري

وهو يتحدث في كل بلد عن أهله وعن عاداتهم وأديانهم ولباسهم ومأكلاتهم ومشربهم ومحاصيل أراضيهم ، ولا يفوته أن يتكلم عن المناخ .

ويعد ماهوان أحد سبعة رجال كتبوا عن بحر الهند على مدى قرن ونصف قبل تحرير « رهمانج فاسكو داغامو » ، نعني : ابن بطوطة ، وانغ - تا - يوان ، وفيي - هسين ، وكونغ شين ، ونيكولو دي كونتي ، وأحمد بن ماجد (٤) ، لاشتراكه بالحملات الصينية بقيادة شنغ هو وتدوينه أخبارها .

## ثانياً - شنغ هو والحملات الصينية

### أ - شنغ هو أو ماهو ( محمد ) :

اسم شنغ هو الحقيقي ما هو أي محمد . وهو من أسرة عاشت في مقاطعة كون ينغ ، الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية من بحيرة تيان شيه في يونان . وكان جده الثاني يدعى بايان ، وهو اسم مغولي ، فلعله كان أحد جنود الحامية المغولية المتمركزة في يونان وكان لقب والده « ما » ، وينادي « بالحاج » لأنه مسلم وحج إلى مكة .

وولد ماهو حوالي عام ١٣٧١ . وكان الولد الثاني في أسرة لديها أربع بنات . وبدت أمارات النبأة عليه في صغره . ولما بلغ العشرين انخرط في خدمة الأمير تشوتي ، رابع أنجال الامبراطور هونغ - وو . وصار هذا الأمير امبراطوراً سنة ١٤٠٣ ، وأصبح اسمه شنغ تسو ( يونغ لو ) .

ويشك في ثقافة ماهو ، لكنه أتقن فنون الحرب ، واشتهر بقمع فتنة في يونان ، فأنعم عليه الامبراطور يونغ لو بلقب شنغ سنة ١٤٠٤ ، ورقاه إلى منصب كبير الخصيان وناظر ديوان الخصيان ، وعيَّنه رئيس المبعوثين والقائد العام لست حملات بحرية أرسلت إلى « المحيط الغربي » بين عامي ١٤٠٥ و ١٤٢١ .

ولما اعتلى الامبراطور جن - تسونغ العرش سنة ١٤٢٤ ، أوقف الحملات البحرية ، وسمى شنغ هو حامي نانكين . وفي عام ١٤٢٨ ، أمره الامبراطور هسوان تي باكمال بناء معبد « باو - ان » في نانكين . وفي عام ١٤٣٠ ، عينه قائد الحملة السابعة والأخيرة إلى المحيط الغربي . وبقي حامي نانكين بعد عودته إلى أن توفي فيها سنة ١٤٣٥ .

وهكذا خدم شنغ هو ثلاثة أباطرة ، وقاد سبع حملات صينية إلى المحيط الغربي ، نفذ فيها باخلاص سياسة سلالة منغ التوسعية .

## ب - نظرة اجمالية الى الحملات الصينية الى المحيط الغربي :

تابع الامبراطور يونغ لو ، من سلامة منغ ، سياسة توسع واضحة ، شملت ارسال حملات بحرية مهيبة الى المحيط الغربي . قاد معظمها كبير الخصيان شنغ هو . ولعل يونغ لو أراد أن يعزّز نفوذه الشخصي ، ويعرض قوته ويستدرج السفارات الى بلاده ، أو أحب أن يزسخ في أذهان العالم دور الصين القيادي في الشؤون العالمية والحضارة ، وأن يفرض سيطرة بلاده على الشرق باظهار بأسها وغناها . وربما استهدف أيضاً توسيع تجارة الصين البحرية مع الغرب ( الهنود والعرب ) خاصة ليؤمن دخلاً كبيراً لخزينته وأرباحاً طائلة لتجاره ، واستيراد ما يحتاجه بلاطه ووطنه بعد أن قطعت فتوحات تيمورلنغ طريق الحرير البرية .

ومهما كانت دوافع الحملات الصينية وأغراضها ، فقد تحولت القوة البحرية لسلالة منغ الى أداة سيطرة سياسية في بحر الهند ، وتجهز رسل « عرش التين » بأسلحتهم التامة لفرض الارادة الامبراطورية واعلان بيانات « ابن السماء » ، وتعريف الملوك بجلالته . ووزعوا هداياه الثمينة على الملوك والحكام الذين خضعوا لهم ، وبطشوا بمن رفض الهيمنة الصينية أو تردد في قبولها .

ولما توفي الامبراطور يونغ لو عام ١٤٢٤ ، كانت سلالة منغ قد وصلت الى أوج قوتها ، وأثرت الصين وكثر سكانها . واعترف بنفوذها الحكام الأجانب على نطاق واسع لم يسبق له مثيل ، حتى ان مصر ذاتها أرسلت سفارة الى بلاط ابن السماء . واشتهرت في الشرق ، وحمت البلدان التي خضعت لها ومدتها بالأموال . وحكم حاكم صيني بالمبانغ برعاية الصين . واحتل حاكم ملاقة ، بحماية البحرية الصينية ، بعض الأراضي التابعة الى التاي . وزارها ممثلو ٦٧ دولة ، منهم مبعوثو سبعة ملوك ، لاعلان خضوعهم الى الامبراطور . أما من رفض الازعان ، فقد أُرهب ، واقتيد الى سجون الصين ، كما حدث لملك سيلان ولزعيمين في جزيرة شمطرة .

وكانت الصين أعظم قوة بحرية في الشرق في مطلع القرن الخامس عشر . وكان أسطول الامبراطور يونغ لو يشمل :

- ١ - ٤٠٠ قطعة حربية ترابط قرب نانكين .
- ٢ - ٢٧٠٠ قطعة حربية تحرس الشواطئ .
- ٣ - ٤٠٠ مركب مسلح لنقل الجبوب .
- ٤ - ٢٥٠ « مركب جواهر » على كل منها ٥٠٠ محارب .

لذلك استطاع أن يعد ست حملات عظيمة ، ضخمة الحجم ، ضمت أساطيل تضمنت ٦٣ مركب جواهر وما يزيد عن ٢٨٠٠٠ محارب . كل ذلك بقيادة كبير الخصيان شنغ هو . وفرضت الصين ارادتها على أراضي امتدت من اليابان شرقاً الى افريقية الشرقية وجدة غرباً . وظهرت قوتها وغناها عندما مخرت سفنها الحربية عباب بحر الهند . وشعر الناس بآسائها حتى سيلان وجزيرة العرب . وازدهرت تجارتها الخارجية ، وحفزت حملاتها البحرية تجارتها البحرية على وجه التخصيص . ودامت حركة التنقل النشيطة منها واليها .

الا أن وفاة الامبراطور يونغ لو أنهت عهد البطولات في الصين الامبراطورية وتلاشت اليقظة الكبرى ، وتبددت الروح المعنوية ، ولم يعد اللجوء الى القوة وارداً ، وبرز شعور مناهض للفتح والتوسع .

وتعاقبت على الصين في الميادين الخارجية ضروب الهزائم والانسحابات والتنازلات، حتى اضطر الامبراطور جن تسونغ أن يوقف حملات ما وراء البحار . كذلك ساءت الأحوال الداخلية فيها . لكن عندما عاد شنغ هو من حملته البحرية السابعة والأخيرة ، كانت بلاده لا تزال أعظم دولة في الشرق . وقد زار شنغ هو خمسين مكاناً جديداً في رحلته الأخيرة اضافة الى البلدان المجاورة مثل شمبا وتايلند . واعتبر حكام كل هذه الأماكن تابعين للامبراطور . وقد سحب شونغ هو في طريق عودته مبعوثون من ١١ بلداً ، ومنهم مبعوث خاص من بركات بن حسن بن عجلان . شريف مكة . ومكة أقصى مدينة وصل اليها الصينيون على طريق أوربة الغربية . كذلك كانت الصين ما تزال تمتلك أقوى بحرية في الشرق تمكنها من الاستمرار في فرض سيطرتها على بحر الهند .

ونشطت الحملات الصينية التجارة البحرية في بحر الهند ، وسيطر الصينيون عليها ، واتصلوا بلا وسطاء بجميع بلدان السواحل .

وكانوا يصدرون الحراير وضروب الخزف واللك والتحف الفنية والعملات النحاسية التي كانوا يقبلونها ثمناً لسلعهم . ويستوردون الكافور والذبل والمرجان والفلفل والتوابل الأخرى ، وجوز أريكا ، وخشب الصندل والبخور والأصبغة والقطنيات وقرون الكركدن والأدوية والزجاج والقصدير وسائر منتجات « المحيط الغربي » .

وقاد الحملات الستة شنغ هو الذي كان أعظم سفير في عهدي يونغ لو وهسوان تي . وترأس حملة سابعة أيضاً . وزار ثلاثين بلداً ونيافاً ، وخلف في معظمها نقوشاً مكتوبة باللفات الصينية والتاميلية والفارسية . وألقى القبض على ملك في سيلان تردد في الخضوع ، وعلى زعيم قراصنة بالمبانغ وعلى مطالب بعرش سيموديره . واشترك بنفسه في معركتين هو وجنوده . واستعمل القوة مع الحكام الأجانب اذا خالفوا تعليماته بارسال الاتاوة الى بلاط الصين . وحفل سجله بالانجازات الرائعة لبلده . وحظي برضى الامبراطور التام . وتشكل حملاته الى المحيط الغربي أعظم حدث في عهد سلالة منغ . وكان المبعوثون الصينيون يتكثرون بعده باسمه ليرهبوا أصحاب السلطة في البحار الجنوبية . وفي عام ١٤٣١ ، منح شنغ هو لقب كبير الخصيان سان باو ، ويعرف به في بلده . وكان رجلاً صلباً ، مهيباً ، عملاقاً ، قوياً جداً . وهو منظم قدير وقائد لا يعرف الخوف، وستراتيجي جريء . ما زال يذكر في أنحاء كثيرة من آسيا ، مثل تايلند حيث شيد معبد باسمه وتقدم له الضحايا فيه وأطلق اسمه في فرموزة على صنف من الزنجبيل ، وتحمل اسمه أقدم بئر في ملاقة حتى الآن .

وتوجه مراسيم القيام بالحملات عادة الى شنغ هو ، كبير الخصيان والمبعوثين الآخرين . وتزعم شنغ هو اسماً كل الحملات التي أمر بقيادتها ، لكنه لم يسافر فيها جميعاً .

ولم يُطلب منه أن يزور البلدان النائية . وإذا وجد في حملة ، ائتمر بأمره بضعة عشرات ألوف المحاربين ومائة مركب ونيف . فكانت قوات كبيرة تحت سلطته على الدوام . وسار في أكبر حملة على رأس ٢٨٠٠٠ رجل وما يزيد عن ٣٠٠ مركب .

ويستلزم اعداد مثل هذه الحملات وقتاً طويلاً . وقد استغرق تحرك الحملات الأخيرة عاماً أو أكثر . ويفرز رجال الحملة عادة من أسطول حماية نانكين وأسطول حرس الشواطئ وأسطول نقل الحبوب . وتبدأ الحملة في الخريف . وينطلق شنغ هو من نانكين ، ويرافق المبعوثين الأجانب العائدين الى بلدانهم .

وتخرج السفن من حوض بناء « مراكب الكنوز » الواقع الى شمال غرب نانكين وتجري ببطء في نهر ينغ تسي الى ليوشياشيانغ ، حيث ينظم شنغ هو أسطولاً ويشرع بتقديم الضحايا في معبد ربة البحر .

وتسير أربعة أصابع الى ثمانية أسابيع حتى تصل الى مرسى تاي ينغ قرب مصب نهر مين في ولاية فوكيين . وتبقى هنالك بضعة أشهر حتى كانون الأول - كانون الثاني ، الى أن تهب الموسميات الشمالية الشرقية . وتقام أثناء ذلك الصلوات الى الآلهة . ثم تتعد المراكب عن ساحل الصين ، وتجري بأشرعتها المفتوحة في الليل .

وتستغرق الحملة حوالي سنتين . ويزور الأسطول عادة كوين نهون في شمبا ، ثم ينطلق الى سور ابايا في جاوة ، حيث ينتظر حوالي أربعة أشهر هبوب الرياح المولة في تموز . ويذهب بعدها الى بالمبانغ ( في شمطرة ) فسيلان ، فكاليكوت ، وفي الحملات اللاحقة ، الى هرموز ، فيصلها في كانون الثاني التالي . ويرجع الأسطول في شهر آذار ، ويمر في مضيق سنغافورة ويبلغ نهر ينغ تسي خلال شهر تموز . وتنفصل بعض المراكب عن أسطول الرحلة الرئيسي ، وتزور أماكن أخرى في بنجالة وجزيرة العرب وأفريقية الشرقية حتى ملندي .

وفيما يلي عرض موجز الحملات الصينية السبع ، ويصف مراكبها وعدتها وعددها ورجالها ، ويحلل أسباب فشل الصين في فرض التبعية الدائمة على بلدان بحر الهند ونجاحها في ابقاء صلات تجارية قوية في « المحيط الشرقي » .

### ج - موجز الحملات الصينية في بحر الهند (٥) :

#### ١ - الحملة الصينية الأولى : ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م - ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م : آخر مراحلها كاليكوت :

صدر مرسوم هذه الحملة في ١١ تموز عام ١٤٠٥ . ووجه الى شنغ هو وزملائه النخسيان . وضم أسطولها ٣١٧ مركباً ( ينك ) ، منها ٦٢ مركب جواهر . وبلغ عدد الضباط الصفار والجنود والمدنيين والتجار والكتبة فيها ٢٧٨٧٠ شخصاً . وزار شنغ هو خلالها جاوة ، وسيموديرة ، ولبري ( أتجه ) وسيلان قبل بلوغه هدفه الأخير ، أي كاليكوت التي يحكمها الملك ساموتيري ( السامري ومعناه ملك البحر ) . وذهب شنغ هو أو صاحبه الى

شبا وملاّقة وعاروه وكيلون . وأقاموا في كاليكوت حوالي أربعة أشهر من شهر كانون الأول عام ١٤٠٦ الى شهر نيسان عام ١٤٠٧ . وأهدى شنغ هو أمراء البلاد التي مر بها أسطوله هدايا نفيسة من الحراير المطرزة بالذهب . وأخضع بالقوة من لم يقبل بالتبعية للامبراطور . وفي طريق عودته ، رافقه مبعوثون من كاليكوت وسيموديرة وكيلون وعاروه وملاّقة وممالك أخرى ، وأعلنوا تبعيتهم الى يونغ لو في عاصمته ، وقدّموا له اطاوة من منتجات بلدانهم .

وحصل حدث بارز في طريق العودة في هذه الحملة في بالمبانغ ، اذ نشبت معركة حامية الوطيس بين شنغ هو وقواته من جهة وبين زعيم القراصنة وقواته من جهة أخرى ، انتصر فيها شنغ هو على سين سووي وقتل مايزيد على خمسة آلاف من قراصنته ، وأخذ هو أسيراً الى الصين وأعدم في نانكين . وأحرقت قوات شنغ هو أو غنمت ١٧ مركباً . وعادوا الى عاصمتهم في ٢ تشرين الأول عام ١٤٠٧ وتأخروا ثلاثة أشهر عن ميعادهم بسبب قتال القراصنة .

## ٢ - الحملة الصينية الثانية : ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م - ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م : آخر مراحلها كاليكوت

صدر مرسوم هذه الحملة في ١٣ تشرين الأول عام ١٤٠٧ ، ووجه الى شنغ هو ، وونغ شنغ - هونغ ، وهو هسين . فطلبوا ٢٤٩ مركباً ولم تتحرك مراكبهم حتى شهر كانون الثاني أو شباط عام ١٤٠٨ . ومرت بتايلند وجاوة وعاروه ولمبري وكويمباتور وكايال وكوشين . وانتهت بكاليكوت ، وبقيت فيها حوالي أربعة أشهر من شهر كانون الأول عام ١٤٠٨ الى شهر نيسان عام ١٤٠٩ . وعاد الأسطول الى الصين في آخر صيف عام ١٤٠٩ . ولم يخرج شنغ هو فيها .

## ٣ - الحملة الصينية الثالثة : ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م - ٨١٤ هـ / ١٤١١ م : آخر مراحلها كاليكوت

صدر مرسومها بين ١٦ كانون الثاني و ١٤ شباط عام ١٤٠٩ م . وجه الى شنغ هو ، وونغ شنغ - هونغ ، وهو هسين . وقاده شنغ هو . وبلغ عدد مراكبها ٤٨ ينك ، ورجالها ٣٠٠٠٠ شخص . وخرج الأسطول من ليوشيا شيانغ في الشهر القمري التاسع ( ٩ تشرين الأول - ٦ تشرين الثاني ١٤٠٩ م ) ، ووصل الى شنغ لو في الشهر القمري العاشر ( ٧ تشرين الثاني - ٦ كانون الأول ١٤٠٩ م ) ، وانطلق الى البحر في الشهر الثاني عشر القمري ( ٥ كانون الثاني - ٣ شباط عام ١٤١٠ م ) من ووهوفين عند مدخل نهر مين ، في ولاية فوكيين ، وأشرع ١٢ قلعة ، وبلغ شبا بريح مولة بعد مرور عشرة أيام وعشر ليالي .

وزارت هذه الحملة شبا وجاوة وملاّقة وسيموديرة وسيلان وكوشين وكاليكوت . وتوقفت في فولوسنبيلن . وترك شنغ هو في سيلان لوحة منقوشة مكتوبة بالصينية والتاميلية والفارسية . وأهدى معبد بوذا هدايا نفيسة باسم الامبراطور . وفي طريق العودة نشبت معركة بين قوات شنغ هو وقوات الملك السيلاني الاغا كورنارا ، ملك مملكة رايبغاما قرب مدينة كولومبو . وانتصر شنغ هو بعد قتال مرير ، وأسر الملك وزوجه وأبناءه



وموظفيه الكبار ، واقتادهم أسرى الى الصين التي عاد اليها في ٦ تموز عام ١٤١١ م .  
وهناك عفا الامبراطور عن ملك سيلان وأعاده الى مملكته .

#### ٤ - الحملة الصينية الرابعة : ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م - ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م : آخر مراحلها هرموز

صدر مرسومها في ١٨ كانون الثاني عام ١٤١٢ م ، وقادها شنغ هو نفسه ، وضمت  
٦٣ مركباً و ٢٨٥٦٠ شخصاً . وخرج شنغ هومن نانكين في خريف عام ١٤١٣ م ، وابتمد عن  
ساحل فوكيين في كانون الثاني عام ١٤١٤ م . ومرت هذه الحملة بشمبا وكيلنتن وفهنج  
وجاوة وبالمبانغ وملاقة وعاروه وسيموديره ولبري وسيلان وكايال وجزر الذيب وكوشين  
وكاليكوت وهرموز . وهذه هي المرة الأولى التي يتجاوز شنغ هو فيها الهند . وانفصلت  
عدة مراكب عن الأسطول وذهبت الى بنجالة . وأمر يونغ لو شنغ هو أن يحارب الفاصب  
اسكندر الذي استولى على عرش سيموديرة من السلطان الشرعي زين العابدين ويعيد هذا  
الأخير الى ملكه . وانتصر شنغ هو على قوات المفتصب التي بلغت عدة آلاف ، ولاحقه  
الى لمبري ، وأسره هو وزوجته وابنه واقتادهم أسرى الى الصين حيث أعدم اسكندر . وعاد  
شنغ هو الى بلده في ١٢ آب عام ١٤١٥ م .

#### ٥ - الحملة الصينية الخامسة : ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م - ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م : آخر مراحلها هرموز، عدن ، ملندي

صدر مرسومها في ٢٨ كانون الأول عام ١٤١٦ م . وكان هدفها الأول ، ظاهرياً ،  
حراسة سفراء بعض البلدان الذين قدموا الى الصين في ١٩ تشرين الثاني عام ١٤١٦ م ،  
وهدفها الثاني تقديم هدايا الامبراطور الى حكام تلك البلدان ، وهي شمبا ، فهنج ، جاوة ،  
بالمبانغ ، ملاقة ، سيموديرة ، لمبري ، سيلان ، جزر الذيب ، كوشين ، كاليكوت ، شاليواني ،  
هرموز ، لاسا أو لأسا قرب المكلا ، عدن ، مقدشوه ، براوه ، ملندي . ولم تحصل على  
عدد مراكبها ولا أفرادها .

وترك أسطولها ساحل الصين في خريف عام ١٤١٧ م ، ووصل لأول مرة الى ساحل  
افريقية الشرقية . واضطر شنغ هو أن يعرض قوته العسكرية في لاسا ومقدشوه .  
وعاد الى الصين في ٨ آب عام ١٤١٩ م .

#### ٦ - الحملة الصينية السادسة : ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م - ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م : آخر مراحلها هرموز عدن براوة

صدر مرسومها في ٣ آذار عام ١٤٢١ م . وأعيد فيها سفراء هرموز وغيرها الى بلدانهم  
بعد انتظار طويل . وهذه البلدان هي ملاقة وعاروه وسيموديرة ولبري وكويمبانور، وكايال  
وسيلان ، وجزر الذيب وكوشين وكاليكوت وهرموز وظفار ولاسا وعدن ومقدشوه  
وبراوه .

وضمت الحملة ٤١ مركباً ، وكانت قصيرة نسبياً : عشرة أشهر . وانقسمت في سيموديرة . وذهب الخصي شو منها الى عدن بثلاثة مراكب وقدم هدايا الى ملك اليمن الناصر أحمد ( ١٤٠٠ - ١٤٢٤ م ) .

## ٧ - الحملة الصينية السابعة : ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م - ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م : آخر مراحلها هرموز وسفارة الى مكة .

صدر مرسومها في ٢٩ حزيران عام ١٤٣٠ م . ووجهت الى شنغ هو خاصة . وضمت أكثر من مائة مركب و ٢٧٥٥٠ شخصاً بين ضباط وجنود وبحارة وأطباء وحرفيين .

وخرجت المراكب من جون التين في نانكين في ١٩ كانون الثاني عام ١٤٣١ م . ووصلت الى ليوشيا شيانغ في ٣ شباط ١٤٣١ ، وحطت في مرسى ماوين في مصب نهر مين وانطلقت في البحر منه ومرت بكوي نهون في شمبا ( ٢٧ كانون الثاني عام ١٤٣٢ م ) وبسورابايا ( ٧ آذار ) وبالمبانغ ( ٢٤ تموز ) وملاقة ( ٣ آب ) وسيموديرة ( ٢٨ تشرين الثاني ) ، وانتهت الى كاليكوت في ١٠ كانون الأول عام ١٤٣٢ م . وانتقلت الى هرموز ووصلتها في ١٧ كانون الثاني عام ١٤٣٣ م . ( بعد سير ٣٥ يوماً في البحر ) . وكر الأسطول عائداً في ١٩ آذار عام ١٤٣٣ عبر بحر العرب ، فوصل الى كاليكوت في ٣١ آذار ، ثم مر بسيموديرة ( ٢٥ نيسان ) ، فملاقة ، فكون لون ، فكوي نهون في شمبا ، وفي ٢٢ تموز كانوا في بكين . ويشار الى أن الحملة أمضت ثلاثة أيام في جزر ناج باري . ويروي تاريخ سلالة منغ أن شنغ هو زار لاسا في جنوب جزيرة العرب ، وذهب مبعوثه الى ظفار ولاسا وعدن ومكة في جزيرة العرب . وكان الخصي هونغ يقود فرقة من الأسطول في كاليكوت . وأرسل سفارة ضمت ماهوان الى مكة . كذلك جرت مراكب أخرى من هرموز الى عدن والموانئ الافريقية ، وربما الى لاسا . ويقال ان بعض المراكب انفصلت عن الأسطول في كاليكوت وأتت الى البنادر العربية . أخيراً يظن أن الصينيين أبحروا مباشرة من كيلون الى مقدشوه ومن سيلان الى براوة .

★ ★ ★

يتضح بجلاء من موجز هذه الحملات أن الصينيين بدأوا بفرض الأمن والتبعية على البلدان الواقعة على طرقهم البحرية في المحيط الشرقي وحتى كاليكوت ، في الحملات الثلاث الأولى . فقضوا على القرصنة في مضيق ملاقة ، وثبتوا مراكز الملوك الشرعيين ضد الفاسيين ، وبطشوا بكل من رفض تبعيتهم . ولما اطمأنوا الى استتباب الأمر والأمن لهم ، انتقلوا الى المرحلة الثانية ، وهي بسط سيطرتهم على المحيط الغربي في هرموز وسواحل جزيرة العرب وساحل افريقية الشرقية حتى ملندي . ولم يحتاجوا الى دخول معارك في المحيط الغربي في الحملات الأربع اللاحقة ، وخضع لهم العرب والأفارقة . وبذا أصبح الصينيون أسياد بحر الهند من أقصاه في الشرق الى أقصاه في الغرب في افريقية وحتى في بحر القلزم . وقد تم لهم كل ذلك بأسطول هائل منظم ورجال أشداء مدربين . وهذا ما سنتحدث عنه الآن .

#### د - أسطول الحملات الصينية وقوته البشرية وطرقه البحرية (٦) •

لا يملك الباحث الا القليل من المعلومات الموثوقة عن النواحي الفنية لمراكب أساطيل الحملات الصينية في بحر الهند • أما عن قوتها البشرية وطرقها البحرية ، ففي متناول يده ما يكفيه ليأخذ فكرة عامة عن هذين الموضوعين •

##### ١ - مميزات مراكب الحملات الصينية في بحر الهند :

بنيت معظم مراكب الحملات في حوض لونغ شيانغ في نانكين • الا أن خبراء هذا الحوض عجزوا عن بناء سفن مماثلة لها بعد مرور مائة عام ، ولم يعرفوا حتى مواصفاتها • وكانت مراكب حملات شنغ هو تسمى « مراكب الجواهر أو الكنوز » لأنها رجعت الى الصين بشروات لا تحصى • وقد ورد في تاريخ منغ أن ٦٢ مركباً ضخماً بنيت للحملة الأولى • لكن لا يجوز أن يتصور الباحث أن جميع سفن شنغ هو كانت من فئة واحدة •

##### (١) - فئات مراكب الجواهر :

فقد ذكرت المصادر الصينية أن القوة البحرية الصينية في عهد سلالة منغ كانت تمتلك ٢٥٠ سفينة جواهر تتوزع على سبع فئات في الحد الأدنى • وهي :

- فئة مراكب الأشرعة التسعة ويبلغ طولها ٤٥٢ قدماً •
- فئة مراكب الأشرعة الثمانية أو سفن نقل الخيول ، وطولها ٣٧٦ قدماً •
- فئة مراكب الأشرعة السبعة أو سفن التموين وطولها ٢٨٠ قدماً •
- فئة مراكب الأشرعة الستة أو سفن نقل الجنود وطولها ٢٤٠ قدماً •
- فئة مراكب الأشرعة الخمسة أو سفن القتال وطولها ١٨٠ قدماً •
- فئة مراكب الأشرعة الأربعة وطولها ١٤٦ قدماً •
- فئة مراكب الأشرعة الثلاثة وطولها ١٣٠ قدماً •

##### (٢) - أبعاد مراكب الحملات وأحجامها :

ولا يقبل جميع الخبراء البحريين بأرقام المصادر الصينية السابقة • فبعضهم يظن أن مراكب شنغ هو الضخمة كانت أبعادها في الحد الأعظم ٣٠٠ قدماً ( حوالي ٩٠ متراً ) طولاً و ١٥٠ قدماً ( حوالي ٤٥ متراً ) عرضاً ، وحمولتها ٣١٠٠ طن • هذا الى جانب حمولات ١٢٥٠ و ١٠٠٠ طن •

ويشيرون أيضاً الى وجود مراكب صينية حمولتها ألفان لياوو ( ١ لياوو = ٥٠٠ ليبرة ) وألف لياوو ، أي ٤٥٠ طناً و ٣٠٠ طن ، والى مراكب نقل الماء •

وكانوا يقولون في القرن السادس عشر أن طول المركب ذي الشراع الواحد لا يجوز أن يتعدى ٥٦ قدماً ( ١٧ متراً ) وطول المركب ذي الشراعين ٩٠ قدماً أي ٢٧ متراً •

في جميع الأحوال ، لا تضاهي المراكب البرتغالية ( ٣٠٠ طن ) المراكب الصينية ، ولا المراكب الانكليزية ( ٤٠٠ طن ) ولا العربية ( ٢٠٠ طن ) في القرن الخامس عشر ، الا اذا ظهرت وثائق جديدة تقلب المفاهيم •

## ٢ - القوة البشرية في الحملات الصينية :

لكن لا يشك أحد بضخامة المراكب الصينية ، ولا سيما أن عدد الأفراد المشتركين في الحملة الواحدة كان يتراوح بين ٢٧٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ شخص ، نقلهم عدد من المراكب تفاوت حسب الحملات على الوجه التالي :

١ - الحملة الأولى :	٣١٧ مركباً
٢ - الحملة الثانية :	٢٤٩ مركباً
٣ - الحملة الثالثة :	٤٨ مركباً
٤ - الحملة الرابعة :	٦٣ مركباً
٥ - الحملة الخامسة :	؟؟؟ غير محددة
٦ - الحملة السادسة :	٤١ مركباً
٧ - الحملة السابعة :	أكثر من ١٠٠ مركب .

وشملت تلك القوة البشرية من أصل ٢٧٠٠٠ شخص في إحدى الرحلات :

٧ مبعوثين رئيسيين	٢ أمين سر
١٠ معاونين للمبعوثين	١ أمين سر ديون الوارد
٥٣ خصيماً عادياً	٢ خبير مراسم
٢ قائد لواء	١ مراقب نجوم
٨٣ رائداً	٤ منجمين ( علماء هيئة )
١٠٤ ملازم أول	١٨٠ طبيب ومعاون طبيب
١٠٣ ملازم ثان	

وضمنت هذه القوة البشرية بحارة ممتازين وملاحين ومعلمين يتقنون استعمال أدوات الملاحة كالبلد و صليب القياس والابرة المغناطيسية ، ويعرفون سائر شؤون الملاحة .

## ٣ - طرق الحملات في بحر الهند (٧) :

واتبعت الأساطيل الصينية في حملات بحر الهند الطرق الشاطئية تارة ، وطرق الباحة طوراً . وكانت الرياح الموسمية تتحكم في حركتها ، وينتظرها الصينيون ثلاثة أشهر وأحياناً أربعة ، ولا يسرون الا عند هبوبها .

- ١ - وكانوا يجارون شاطئ الصين حتى مصب نهر مين .
- ٢ - ثم ينطلقون في البحر حتى شمبا .
- ٣ - ويذهبون من شمبا في الباحة الى سورابايا في جاوة .
- ٤ - ويتوجهون من جاوة الى المبانغ في شمطرة ثم ملاقة ثم اتجه .
- ٥ - ويقطعون البحر من اتجه الى سيلان . وقد يذهبون من اتجه أو شمطرة مباشرة الى عدن أو الى ساحل افريقية الشرقية .

٦ - ويقلمون من سيلان الى كاليكوت ، ويبحرون من كاليكوت الى هرموز أو بر العرب أو ساحل افريقية .

وتعني هذه الطرق أنهم كانوا يقطعون بحر الهند من أي جهة يشاؤون ، وبالتالي أن اهداءهم بالكواكب كان دقيقاً جداً ومتقدماً جداً . وهذا ما أثبتته رحلاتهم وثبتته وثائقهم الملاحية التي لا حاجة الى شرحها الآن .

#### ه - فشل الحملات الصينية في الهيمنة على بحر الهند :

وهكذا نرى أن الحملات الصينية استمرت بثبات من عام ١٤٠٥ م الى عام ١٤٣٣ م أي أكثر من ربع قرن . وضمت ما يقرب من ألف مركب من أحجام متباينة تتراوح حمولتها الاجمالية بين مائة ألف ونصف مليون طن على مدى رحلاتها السبع ، نقلت في تلك الأسفار ٢٠٠٠٠٠ شخص ، منهم المحاربون المشاة والخيالة مع جيادهم المحمولة في سفن خاصة . وصرفت الصين أموالاً طائلة لاعداد هذه الحملات ، وأنفقت عليها طيلة ال ٢٨ سنة التي تنقلت فيها في بحر الهند .

ويرفض العقل اعتبار هذه الحملات الباهظة التكاليف ، رحلات اقامة علاقة سياسية مع بلدان سواحل بحر الهند ، لأن وجود قوات مسلحة تسليحاً تاماً وباعداد كبيرة في الأساطيل يستبعد رغبة تحقيق أغراض دبلوماسية ، الا اذا افترضنا أن تلك القوات أرسلت لحماية مبعوثي الامبراطور واطهار عظمة الصين .

ولا يقبل العقل أيضاً أن يسلم بأن الحملات الصينية كانت أسفاراً تجارية ، لأن التجارة في القرن الخامس عشر لا تستلزم مراكب تعدد بالخمسينات ولا بالمئات ، ويحمل المركب الواحد منها ٣٠٠٠ طن ان كان ضخماً وما لا يقل عن ٣٠٠ طن اذا كان صغيراً . ولم يسبق أن سجل تاريخ تجارة بحر الهند أساطيل بهذه الضخامة أو سفناً تحط في بنادره بهذا العدد المذهل .

وحقيقة الأمر أن الحملات الصينية عمليات عسكرية مدروسة ومنظمة ومجهزة بدقة غايتها فرض هيمنة الامبراطورية الصينية على بحر الهند وبلدانه ، من اليابان الى بر الزنج مروراً ببلدان الشرق الأقصى والهند والسند وبر العرب ، ووصولاً الى ملندي . والأدلة على نوايا الصين التوسعية وقائع ثابتة ، منها :

١ - القوة الكبيرة المحمولة على مراكب الأساطيل الصينية . وقد تراوح عددها حوالي ٣٠٠٠٠ رجل وقال بعض المؤرخين الصينيين بل ٣٧٠٠٠ رجل . وفي حديث ماهوان ، أحد المؤرخين الذين رافقوا شنغ هو عن عدن ، يقول : « وفي هذه البلاد جيش قوي جداً ، قوامه سبعة الى ثمانية آلاف رجل من مشاة وخيالة . لذلك تخافها البلدان المجاورة لها » . فاذا كان جيش عدن الصغير مرهوباً ، فما بال جيش شنغ هو الذي يبلغ عدده ثلاثة أمثال جيش عدن ؟

٢ - قضت قوة المراكب الصينية على القراصنة اليابانيين ، وعلى قراصنة شمطرة ( عددهم خمسة آلاف في مضيق ملاقة وحدها ) .

٣ - هزمت قوة المراكب الصينية جيش ملك سيلان وأسرتة . وإذا كان الامبراطور يونغ لو قد عفا عنه وأعاده الى بلده ، فانه نصَّب في سيلان ملكاً آخر اسمه باراكانا باهو راجا ، وظل الملك الجديد يدفع اتاوة الى الصين بانتظام حتى عام ١٤٦٢ .

٤ - كادت هذه القوة اياها أن تتدخل في جنوب جزيرة العرب وفي ساحل افريقية الشرقية ، لكن سويت الأمور بلا قتال .

٥ - فرض المبعوثون الصينيون على جميع أصحاب السلطة في البلدان التي زاروها - ولم يوفروا أحداً - أن يدفعوا اتاوة وأن يسافروا أو يرسلوا مندوبين عنهم ليعلموا تبعيتهم لأمبراطور الصين في عاصمته .

ويؤيد تسلسل الأحداث التاريخية سعي الصين المتواصل للسيطرة على « المحيط الغربي » وسواحله في سيلان والهند أما صلات الصينيين بالعرب ، فظلت متميزة ولا يبدو أنه طرأ عليها تغيير في القرن الخامس عشر .

#### ١ - الصين وسيلان :

وتعود العلاقات بين الصين وسيلان الى مطلع القرن الخامس الميلادي (٤٠٥) ، عندما ذهبت سفارة ملك سيلان وقدمت الى الامبراطور صورة بوذا مرصعة بالحجارة الكريمة . وتوالت بعثات سيلان الى الصين في أعوام ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٥٦ م .

وأعلن ملوك سيلان في القرن السادس أنهم أتباع امبراطور الصين ، وأبلغوه قرارهم عام ١٥٠٥ وتتابع سفارتهم اليه في أعوام ٥٢٣ ، ٢٧ ، ٣١ وأرسلت سيلان مندوبين عنها عام ٦٧٠ م و ٧١١ م .

وفي عام ٧٤٢ م ، وصل الى الصين تجار جاؤوا بطريق البحار الجنوبية وجلبوا من سيلان ( مملكة الأسود ) سلماً ثمينة أهدها الى الامبراطور الصيني . ثم انقطعت الصلات حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، عندما عاد السيلانيون الى استيراد البضائع الصينية ، وصار جنود صينيون يخدمون في جيش ملك سيلان .

أما في بدء القرن الخامس عشر ، فقد تصرف الامبراطور يونغ لو وكأنه يرمي الى اعادة النفوذ الصيني الى سيلان .

#### ٢ - الصين والهند :

أما العلاقات بين الصين والهند فأقدم من علاقات الصين والسيلان ، وتعود بدايتها الى عام ١٢٢ قبل الميلاد .

وقد أرسل كثير من ملوك الهند هدايا الى امبراطور الصين في القرن الأول والثاني للميلاد . ثم انقطعت البعثات الهندية في القرنين الثالث والرابع .

ونشأت تجارة بحرية بين الصين والهند في أواخر القرن الرابع . وعاد ملوك الهند لاسيما البوذيون منهم ، الى ارسال مندوبين وهدايا في القرن الخامس .

واجتاحت الصين الهند ، وأخضعتها في القرن السادس . وفي القرن الثامن استأنف ملوك الهند ارسال السفارات .

وقوي التبتيون في القرن التاسع وهددوا الصين ، فاستنجدت هذه الأخيرة عام ٧٨٧ م بالأتراك الأويغور وملوك الهند والعرب ، دون جدوى .

وانقطعت سفارات الهند حتى القرن الخامس عشر . اذن هنا أيضاً ، يتحرك الصينيون ضمن اطار سوابق تاريخية ودينية .

### ٣ - الصين والعرب :

وصلات الصين بالعرب قديمة ، نشير الى بعض ما ورد منها في الوثائق التاريخية . فحمزة الأصفهاني والمسعودي ذكرا أن مراكب الهند والصين كانت تصل الى الحيرة عبر الفرات (٨) . ثم صارت تقف عند الأبلّة ، وتراجعت بنادر رسوها مع الزمن الى البصرة فسيراف فجزيرة قيس فهرموز (٩) .

وتروي الحوليات الصينية لسلالة تنغ ( ٦١٨ - ٧٠٧ ) في القرنين السابع والثامن أن الينك الصينية كانت تأتي من كانتون الى الفرات ، وتمر بسيلان وملبار وكمباية وديو وسيراف ، وتحط في مصب نهر الفرات . ثم تحولت المراكب الصينية عن خليج العرب وصارت تسافر الى عدن ، التي أصبحت مستودع تبادل السلع بين الصين والعرب .

وأسس العرب مركز تجارة في مدينة كانتون ، لا يعرف أحد تاريخ انشائه ، لكنه كان قوياً جداً في منتصف القرن الثامن (٧٥٨م) . كذلك كثروا في مدينة خانفوه (١٠) .

وقامت اتصالات برية وسفارات بين الخلفاء الأمويين ( الوليد ) والعباسيين ( المنصور وهارون الرشيد ) وبين الصين التي استنجدت بالعرب ضد التبتيين ونصروها . واستنجد الساسانيون ( يزجرد الثالث ) بالصينيين ضد العرب في القرن السابع ، فنصحوهم بالتفاهم معهم مثلما ذكر الطبري .

وتقلصت العلاقات التجارية مع الصين مباشرة وصار معظمها يتم عن طريق الهند حتى القرن الخامس عشر . وفي هذا القرن تبادلت الصين الهدايا مع اليمن وشریف مكة ، لكن الأساطيل الصينية كادت تصطدم بالعرب قرب المكلا وفي عدن .

وهكذا أثبتت أحداث القرون الغابرة ووقائع القرن الخامس عشر أن الصين حاولت بالسيف الحاق بحر الهند وبلدانه الساحلية بتبعيةها . لكنها فشلت في الماضي والحاضر ، وتوقفت الحملات البحرية وعرض القوة والتهديد باللجوء اليها بعد وفاة الامبراطور يونغ لو وخلفه . ولم يدرك البلاط الصيني فيما يبدو أهمية الدولة البحرية العظمى الدائمة .

## و - مكاسب الصين وفوائد الأمم من الحملات الصينية •

فهل يعني فشل الصين عملياً في فرض احتلالها العسكري المكشوف ، مثلما فعلت في شمطرة وفي سيلان ، أو المستور في باقي الأماكن ، اخفاقها في سائر الميادين ؟ كلا • فقد حققت لنفسها مكاسب جمة ، وجنت الأمم الأخرى فوائد جلية •

### ١ - مكاسب الصين من حملاتها البحرية :

فالمكسب الأول للصين جغرافي ، اذ حصلت على أخبار صحيحة ودقيقة ومستفيضة عن جغرافية بحر الهند وجزره وسواحله ، تختلف كلياً عن حكايات السفار وروايات الرحالة المنمقة • وشملت تلك المعارف النبات والحيوان والثروات المعدنية والمحاصيل الزراعية وأحوال الشعوب وأديانها ولغاتها ، الى جانب الظواهر الطبيعية كالمناخ والمياه وغيرها ( قاسوا الندى في مكة فبلغ ثلث انش في الليلة الواحدة ) •

والمكسب الثاني تجاري لأنهم تعاملوا مع كل بلد مروا به مباشرة وبلا وسطاء • فباعوا كميات السلع الصينية الهائلة التي حملوها معهم مثل أصناف الحرير والخزف ، واشتروا بأثمانها بضائع محلية مثل الحجارة الكريمة والمعادن والأدوية والأسود والفهود والخيول والزرائف والحرر الوحشية المقلمة والابل والنعام والمنسوجات القطنية واللاآء •

والمكسب الثالث علمي ملاحي فلكي تطبيقي • فالصين أسهمت في تقدم علم الفلك على نطاق واسع ، ولع علماء الهيئة عندها منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وراقبوا عياناً ١٤٠٢٠ كوكباً مقابل ١٠٢٢ عند بطليموس. ولماحيهم نجومهم وقياساتهم وأدواتهم الخاصة التي تذكر بالنهج الملاحي العربي ، حتى فيما يختص بالبوصلة المسماة الابرة المغناطيسية المائية • وكانوا يطبقون الهداية بالنجوم في المياه البحرية القريبة من برهم • وأتاحت لهم رحلات القرن الخامس عشر أن يختبروا علمهم الملاحي في جميع أنحاء بحر الهند ، وثبتوا من صحته وتعلموا طرقاً بحرية جديدة أوصلتهم الى جزيرة العرب وملندي • فأصبح معاملتهم وتجارهم قادرين على القيام بأسفار فردية يكتنفها الحد الأدنى من الأخطار والمغامرة •

والمكسب الرابع « اعلامي » ، اذ لم تعد الصين بلاد الواق واق المجهولة التي تروى عنها الأساطير والخرافات ، بل شاهدت جميع شعوب البحر الهندي أهلها ، ورأت عظمتها وشعرت بغناها •

### ٢ - فوائد الأمم من حملات الصين البحرية :

اذن فشل الصينيون في الاحتلال العسكري ، لكنهم استفادوا في نواحي عديدة أخرى وأفادوا سائر الأمم أيضاً •

وجنت بلدان سواحل بحر الهند ، بمعناه الواسع دوماً ، فائدة أولى عظيمة ، تمثلت في نشر الأمان والاطمئنان على جميع الطرق البحرية المؤدية الى بلدان تحت الريح والى الصين نفسها بعد أن قضوا قضاء تاماً على أعمال القرصنة •



والفائدة الثانية هي أن الصينيين الذين جاؤوا فاتحين ، أصبحوا فئة من الفئات التي تبحر في بحر الهند بلا امتياز ولا تسلط ، لا بل ان واقعاً جديداً تكرر في الملاحاة ، تؤيده المصادر العربية ، ويتلخص فيما يلي :

- ١ - بحر الهند بحر مفتوح لجميع الأمم ، لا يعترض أحد أحداً . وأفاد كثيرون من هذه الحرية الممنوحة للكل بلا استثناء . لكن
  - ٢ - اختص معاملة الصين بالنقل والتجارة حتى جاوة وشمطرة وملاقة وبأسفار نادرة في المحيط الغربي .
  - ٣ - اكتفى أهل الهند وسيلان ومعاملة تحت الريح بخليج البنغال وبأسفار قليلة في المحيط الغربي .
  - ٤ - وانفرد العرب والفرس بالمحيط الغربي وخليج العرب وبحر القلزم وبأسفار قليلة الى بحر الزنج والمحيط الشرقي .
  - ٥ - وبقي معاملة الزنج أسياًداً في بحر الزنج حتى سفالة وجزيرة القمر، ونادراً مايسافرون الى جزيرة العرب أو غيرها .
- بالتالي أدت الحملات الصينية الى قيام سلم بحري دائم في بحر الهند ، والى قيام اتفاق ضمني مبني على الأمر الواقع ، حفظ مصالح جميع البلدان الساحلية .

### ثالثاً - نصوص ماهوان عن هرموز وظفار وعدن ومكة

#### أ - بلاد هرموز (١١) :

إذا انطلقت السفينة من بلاد كولي ( كاليكوت ) ، واتجهت الى الشمال الغربي ، تصل الى بلاد هرموز بعد سفر خمسة وعشرين يوماً بريح مولة (١٢) . وتقع عاصمة البلاد قرب البحر وعلى سفح الجبال .

وتأتي الى هرموز سفن من جميع البلدان . ويجيء اليها تجار أغراب يسافرون في البر ، ويذهبون جميعاً الى السوق ويشتركون في البيع والشراء . لذلك أهل هذه البلاد أشرياء (١٣) .

ويدين ملك هرموز وأهلها بالاسلام . وهم وقورون ودقيقون وراسخو الايمان . يصلثون خمس مرات في اليوم ، ويتوضؤون ويصومون . وتقاليدهم طاهرة وشريفة . وليس لديهم أسر فقيرة . وإذا افتقرت أسرة من أسرهم ، وهبوا لها الثياب والغذاء والمال ، وأقالوا عثارها . وأوصالهم ووجوههم نقية ووسيمة ، وبنيتهم قوية ، وشكلهم جميل . وثيابهم وملابس رؤوسهم حسنة ومتميزة وأنيقة . ويطبقون مبادئ الاسلام في زواجهم ودفن موتاهم .

واذا أراد رجل منهم أن يعقد زواجا على امرأة ، أرسل وسيطا يحدد بنود الاتفاق بين الطرفين . ثم تقيم أسرة العريس حفلة تدعو اليها الشيخ - ينفذ الشيخ أصول الشرع في الزواج والمهتمين بالزفاف والوسيط والأقارب المسنين . وتخبر الأسرتان بعضهما بعضاً عن أصلهما ونسبهما لثلاثة أجيال . ومتى أنجز توقيع وثائق الزواج ، يحدد يوم تنفيذ العقد . فاذا لم ينفذ ، اعتبرت السلطة النكول عنه زنى واقتضت من المذنب .

واذا توفي رجل منهم ، ألبسوه ثوباً أبيض ، ثم أخذوا إبريقاً مليئاً بالماء النظيف ، وغسلوا جثمانه من الرأس الى القدمين مرتين أو ثلاث مرات . وبعد تطهيره ، يملؤون فمه وأنفه بالمسك والكافور . ثم يكفنونه ويضعونه على محمل ويدفنونه .

ويبنى القبر من مداميك حجارة ، ويفرش في أسفله خمسة أو ستة تسونات ( ستة انشات تقريبا ) من الرمل النظيف ، وينزلون الجثمان وحده فيه ، ثم يسقفونه بالحجارة ويردمون تراباً فوقه .

ويستخدم أهل هرموز السمن في غذائهم ، ويخلطونه ويطبخونه مع طعامهم ويبيعون في الأسواق لحم الغنم مشويًا وغيره من اللحوم ، وفراريج مشوية وفطايروهر ايس وجميع مأكلي الحبوب . ولا تطبخ بعض الأسر القليلة العدد المؤلفات من شخصين أو ثلاثة ، بل تشتري طعامها من السوق .

ويسك ملكها عملة فضية تسمى ديناراً ، قطرها ستة فئات ( سبع انش ) وعلى ظهرها كتابة . ووزنها أربعة فئات ( ٠,٠٤٧٩ ، أونصة ) ، وتداولها عام .

ويكتبون خطوطهم بالأحرف العربية .

وتتضمن أسواقهم جميع أنواع المخازن ، وفيها جميع أصناف السلع . لكن ليس لديهم خمارات ، لأن من يشرب الخمرة يقضي القانون باعدامه .

ويتفوق فيها الموظفون المدنيون والعسكريون والأطباء والمنجمون على أمثالهم في البلدان الأخرى . وفيها خبراء في جميع الفنون والمهن .

ولا شيء غير مألوف في شعوزاتهم وبهلوانياتهم ، سوى تسلق الماعز عموداً خشبياً . فهذا العرض طريف الى أقصى حد . ويستعملون فيه عموداً يبلغ طوله حوالي شنغ واحد ( ١٠ أقدام وانشان ) . ولا يتسع رأس العمود الا لوضع أظلاف الماعز الأربعة . ويركزون العمود في الأرض ، ويشبثونه . ثم يقود رجل جدياً أبيض ، ويصفق بيديه ، وينشد أغنية رتيبة ، فيشب الجدي على دق الطبل ويقترب من العمود .

وبعد ذلك ، يضع الجدي قائمته الأماميتين على العمود ، ثم يقفز بسرعة ويضع قائمته الخلفيتين عليه . عندئذ ، يتناول الرجل عموداً آخر ، ويميله قدماً قوائم الجدي ، فينقل الجدي قائمته الأماميتين ويضعهما على رأس العمود المائل ، ويرفع قائمته الخلفيتين بعجلة ويشبث الرجل هذا العمود الثاني . فيصبح الجدي واقفاً على أعلى العمودين ،

ويعرض وضعات ويقوم بحركات رقص • ويتناول الرجل عموداً ثالثاً • ويضيف خمسة أو ستة أطوال متتالية حتى الأعلى فيزيد الارتفاع حوالي شنغ واحد ( أي يصبح تقريباً ٢٠ قدماً ) • ومتى انتهى الجدي من الرقص ، يقف على العمود الأوسط الذي يدفعه الرجل ويتلقى الجدي بين يديه •

ثم يأمر الجدي أن ينبطح على الأرض ، ويتظاهر بالموت ، فيفعل • ويأمره أن يمد قائمته الأماميتين ، فيمدهما ، ثم قائمته الخلفيتين ، فيطيع أيضاً •

عندئذ يأتي رجل يجر وراءه حماره الأسود العريض الذي يبلغ علوه حوالي ثلاثة شيعات ( ٣٦،٧ انش ) • ويعرض ألعاباً بارعة بطرق شتى ، ثم يطلب من أحد الحضور أن يأخذ منديلاً ويطويه عدة مرات ويعصب به بشدة عيني حماره • ويطلب من رجل آخر أن يضرب الحمار خلصة على رأسه ويختبئ بين المشاهدين • بعد ذلك ، ينزع الرجل العصاة عن عيني الحمار ويطلب منه أن يفتش عن الشخص الذي ضربه على رأسه • فمهما كان عدد الجمهور كبيراً ، يذهب الحمار رأساً إلى الرجل الذي ضربه ، ويشير إليه • فهذه اللعبة من أعجب الأمور •

وينطوي مناخ هرموز على فصل بارد وفصل حار • وتتفتح الزهور في الربيع ، وتتساقط الأوراق في الخريف • ويحصل صقيع عندهم لكن لا تثلج • ومطرهم نادر لكن ندامهم غزير •

وعندهم جبل واحد كبير ، تؤخذ من سفوحه الأربعة أربعة مواد • فمن أحد السفوح يستخرج ملح يشبه ملح البحر ، لونه أحمر • ويقتلع أهل هرموز قطع الملح بمجرقة حديد مثلما تقتلع الحجارة • ويزن بعضها ٣٠ أو ٤٠ شين ( ٣٠ شين = ٤ ، ٣٩ ليبرة ) • ولا رطوبة في هذا الملح ويطحن مسحوقاً قبل استهلاكه • ويؤخذ من السفح الثاني تراب أحمر لونه كلون الزنجفر • ويعطي السفح الثالث تراباً أبيض كالكلس تطرش به الجدران • وفي السفح الرابع تراب أصفر يشبه لونه نبات الكركم •

في جميع الأحوال ، يشرف مسؤولون على مقالع ذلك الجبل • ويأتي التجار من جميع الأقطار لشراء هذه المواد وبيعها •

ومن مخاصيل أرضهم الرز والقمح لكن بمقادير ضئيلة • ويشريان أيضاً من أماكن متفرقة ، وينقلان إلى هرموز حيث يباعان بأسعار زهيدة إلى أقصى حد •

وعندهم من الثمار والغضار ، الجوز واللوز والصنوبر والرمان والأعنان والدراق المجفف ، والتفاح والتمور والبطيخ الأخضر والخيار والبصل والكرات والقفلوط والثوم والبطيخ الأصفر وغيرها • ويكثر عندهم الجزر الأحمر ، ويبلغ حجمه حجم جذور النيلوفر • والبطيخ الأصفر كبير جداً وعلوه بعضه ٢ شين ( ٤ ، ٢٤ انش ) • وقلب جوزهم أبيض • وقشره رقيق يكسر باليد وطول حبة الصنوبر حوالي تسون واحد ( ١،٢ انش ) •

وأعنا بهم ثلاثة أو أربعة أصناف • يشبه أحدها التمر الجاف ، ولونه أرجواني • والصنف الثاني بحجم بذرة النيلوفر ، لا بذرة فيه ويخفف • والصنف الثالث بحجم حبة الفاصولياء البيضاء ولونه أبيض • ويشبه لوزهم الجوز • وهو مروّس وطويل وأبيض ، ولله نكهة الذ من نكهة الجوز : وحجم ومانهم بحجم كأس شرب الشاي • وحجم تفاحهم بحجم قبضة اليد ، وهو لذيد وله أرج •

والتمور الفارسية عندهم على ثلاثة أصناف أيضاً • يسمى النوع الأول الدشب ، وحبته بحجم الابهام وعجوته صغيرة • ويربى مثل سكر النبات ، وجلوته عالية جداً ، فلا يستساغ أكله • ويهرس النوع الثاني ويحول الى ٢٠ أو ٣٠ قطعة كبيرة ، وله طعم مثل طعم البرسيمون المجفف الجيد والتمر الممتاز • ويشبه النوع الثالث العناب ، الا أنه أكبر منه ومذاقه حامض ويقدم علفاً للحيوانات •

وتجلب الى هرموز جميع السلع النفيسة من جميع الجهات •

ولديهم يواقيت زرقاء وحمراء وصفراء ، والذراخ والزمرد وجواهر « عيون القط » والماس واللؤلؤ الكبير بقدر حبة الايدع ووزنه شين واحد وفنان أو ثلاثة ( ٦٩ قمحة ) والمرجان - عقود وأغصان وجذوع - والعنبر الأصفر وحب العنبر وخرز المسابح ، والعنبر المائع والعنبر الأسود ( الأصهب ) وأواني الشب والكريستال وعشرة أصناف من قطع المخامل المطرزة والمزهرة ( طول زئبرها فن أو فنان ، طولها شنفهان والعرض شنف واحد : ١ فن = ١٠ انش ، ١ شنف = عشرة أقدام وانشان ) ، ونسيج صوف من جميع الأصناف ، والسحل ، واللباد ، والكريب ، والكريب المزابر ، والشاش المزابر ، وجميع أنواع المناديل الأجنبية المطرزة بالحرير الأزرق والأحمر وغيرها • وتباع كل هذه السلع في هرموز • وعندهم كثير من الابل والخيول والبغال والثيران والماعز •

وماعزهم أو غنمهم أربعة أجناس • الجنس الأول ضخمة الالية ، ويزن الحيوان الواحد منه ٧٠ - ٩٠ شين ( ٩٢ ليبرة ) ، ويزيد عرض اليته عن شين واحد ( ١٢ ، ٢ انش ) ، وتنجر على الأرض ، وتزن أكثر من ٢٠ شين ( ٢٦٣ ليبرة ) • وللجنس الثاني ذنب كذنب الكلب ، ويشبه ماعز الجبل ، ويزيد طول اليته عن شينين ( ٢٤٤ انش ) • والنوع الثالث العنز الناطح ، وعلثوه شيحان و ٧ أو ٨ تسون ( ٣٣ انش ) • وشعره طويل وينجر على الأرض في مقدمته ، وهو نظيف في مؤخرته • ويشبه برأسه ووجهه وعنقه وجبهته الغنم • وتنكف قروونه وتستدير نحو جبهته ، ويعلق بها جرس حديد صغير يسمع صوته عند مشي الحيوان • ويتهيج هذا الجنس بطبيعته عندما يناطح • ويربىه هواة النوادر في بيوتهم ليناطح ماعز غيرهم ويراهنون عليه بالمال •

ويعيش في بلاد هرموز نوع من الحيوان يسمى الوشق • وحجمه بحجم القط الكبير • وجسمه مرقط تماماً كذيل السلحفاة والذراخ • وأذناه مروستان وسوداوان • وهو وحشي لكنه لا يؤذي • وإذا رآته الأسود أو الفهود أو غيرها من الوحوش سجدت أمامه على الأرض لأنه ملك الحيوانات •

وأخذ ملك هرموز مركباً أيضاً ، وحمله أسوداً وزرائف وخيولاً ، ولآلىء وحجارة كريمة  
وغيرها ، وذكرى لعرش الصين مكتوبة على ورق من ذهب . وأرسل رسله الذين صحبوا  
مراكب الكنوز التي بعث بها الامبراطور ، وكانت عائدة الى الصين من المحيط الغربي ،  
وذهبوا الى عاصمة الصين وقدموا هداياهم .

## ٢ - بلاد ظفار (١٤) :

إذا انطلقت السفينة من كولي ( كاليكوت ) ، وسارت في الاتجاه الشمالي الغربي بريح  
مoule ، تصل الى ظفار بعد مضي عشرة أيام بلياليها (١٥) . وتقع هذه البلاد قرب البحر  
وعلى سفح الجبال ولا تمتلك أي مدينة مسورة ولا أرباضاً وتحدها الجمة في جنوبها الشرقي ،  
وسلاسل الجبال في شمالها الغربي .

ويدين ملكها وجميع أهلها بالاسلام . وأوصال رجالها طويلة وعريضة ، وقوامهم  
فارح وبدين . ويمتازون بصدق وعودهم .

ويتعمم ملكها بعمامة بيضاء نفيسة أجنبية ، ويرتدي عباءة تغطي رأسه ، مطرزة  
بالحرير النفيس ، ومزهرة برسوم عرضها عرض الابهام ، أو يلبس ثوباً مطرزاً بالذهب .  
وينتعل جزمات أجنبية أو أحذية جلدية مروسة ومسطحة المقدمة .

ويجلس الملك في محفة أو يركب جواداً إذا أراد التجول في المدينة . وتتقدمه وتتبعه  
صفوف من الفيلة والابل وفرق الخيالة ، وجنود مشاة يحملون سيوفهم ودروعهم . ويسير  
الجميع في حشد كثيف ينفخون في الصفارات والمزامير .

وينطلي أهل البلاد رؤوسهم بالمصائب ، ويرتدون ثياباً طويلة ، وينتعلون الجزم أو  
الأحذية .

وفي يوم العبادة ( الجمعة ) ، تتوقف التجارة في الأسواق قبل الظهر . ويتوضأ جميع  
الناس ، رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً . ثم يتناولون ماء الورد أو العود الثقيل والزيت ،  
ويمسحون بها وجوههم وأوصالهم . ويرتدون ثياباً نظيفة مغسولة من فترة قصيرة .  
ويأخذون مبخرة فخار صغيرة ، ويشعلون شيئاً من العود الثقيل والصندل والعنبر وغيرها من  
البخور ، ويضعونه في المبخرة ، ويبخرون ثيابهم وأوصالهم . ثم يذهبون الى الجامع  
ليتعبدوا . ويعودون الى منازلهم بعد الصلاة مباشرة ، فينتشر عير عطرم في أزقة الأسواق  
التي يمرون فيها ، ويبقى بعض الوقت .

ويطبق أهلها الأعراف الاسلامية في طقوس زواجهم ودفن موتاهم .

وتنتج أرضهم اللبان (١٦) . وهو في الحقيقة صمغ شجر يشبه شجر الدردار ، الا  
أن ورقه شوك وطويل . ويجرح أهل ظفار هذا الشجر ويجمعون نسغه ويبيعونه .

وبعد ما وصلت مراكب الكنوز الصينية الى ظفار ، وتمت تلاوة الارادة الامبراطورية  
وتقديم الهدايا الصينية ، أرسل ملكها رسله الى جميع الجهات ليخبروا أهل بلاده بأن يأتوا

باللبان ودم الأخوين (١٧) والقاطر والمر والميعة والاصطرك السائل . فجأؤوا ليقايضوها  
بنسيج الحرير القنبي والأواني الخزفية وغيرها من السلع الصينية .

ويشبه مناخ هذه البلاد مناخ الشهر القمري الثامن والتاسع ، فلا برد فيها البتة .

ويتوفر في هذه البلاد الأرز المقشور وغير المقشور والقمح والقطاني والذرة البيضاء  
والصفراء ، بزور القنب ، وجميع أنواع الخضار والقرع . وعندهم ثيران وماعز  
وخيل وحمر وقطط وكلاب ودواجن وبط .

ويأوي النعام الى جبالهم . ويصطاده بعض السكان ويبيعونه . ولهذا النعام  
جسم عريض وعنق طويلة . وهو يشبه الكركي (الغرنوق) . ويبلغ علو رجله ثلاثة أو  
أربعة شيعات ( ٣ = ٧ ، ٣٦ انشاً ) . وله في كل رجل أصبعان فقط . ويشبه ريشه  
وبر الجمل . ويأكل البازلا الخضراء وما يشاكلها . ويمشيء مشية الابل ، لذلك يسمى  
أحياناً الدجاجة الجمل .

أما ابلهم فبسنام واحد ، وعندهم ابل بسنامين . ويركب جميع الناس الابل عندما  
يذهبون الى الأسواق . وإذا أشرفت ابلهم على الهلاك ، ذبحوها وباعوا لحمها .

ويسك الملك عملة ذهبية تسمى تنكا ، وزن القطعة الواحدة منها شينين ( ٢٣٩.٨٣ ،  
ليبيرة ) . وقطرها تسون واحد وخمسة فئات ( ٨ ر ١ انش ) . وعلى أحد وجهيها صورة  
انسان وعلى الوجه الآخر كتابة . ويسك أيضاً عملة نحاسية صغيرة ، وزن القطعة منها  
ثلاثة ليان ( ١ ، ٧ قمعة ) وقطرها أربعة فئات ( ٤٨ ر ٠ انش ) من أجل الصفقات التجارية  
البسيطة .

وفي اليوم الذي غادر مبعوث الصين ظفار ، بعث ملكها بزعيم حمل لباناً ونعاماً وأشياء  
أخرى ، وأبحر في مركب الكنوز ليقدم الاتاوة لبلات الصين ( ١٨ ) .

### ٣ - بلاد عدن (١٩) :

إذا أقلعت السفينة من بلاد كولي ( كاليكوت ) ، واتجهت الى الغرب ، تصل الى  
عدن بريح مولة في غضون شهر قمري ( ٢٠ ) . وتقع هذه البلاد قرب البحر وتبتعد كثيراً عن  
الجبال .

وعدن غنية ومكتظة بالسكان ، ويدين جميع أهلها بالاسلام ، ويتكلمون اللغة  
العربية ، ويميلون الى الفطرسية .

ولديهم جيش قوي قوامه سبعة آلاف أو ثمانية آلاف رجل بين خيالة ورجالة ، حسني  
التدريب . اذن هذه البلاد منيعة جداً وتخشاها الدول المجاورة لها .

وفي العام التاسع عشر من حكم يونغ لو ( ٢١ ) ، أمر هذا الامبراطور أن يحمل « لي » ،  
مبعوثه العظيم وكبير الخصيان ، وغيره مرسومياً سامياً ، ويمنح ملك عدن وزعماءها كسوة

وعمامة • فلما وصلوا الى سومنتالا (٢٢) ، انقسم الأسطول الصيني ، وقصد الخصي شو عدن وبامرته مراكب كنوز عديدة ، وبلغها •

وعندما سمع ملك عدن بوصول المبعوث الصيني ، خرج الى الشاطئ يصحبه أعيان كبار وصفار ، واستقبله ، وقبّل المرسوم الإمبراطور وسّر بالهدايا الصينية ، وأقام له حفلة ترحيب في قصره بكل احترام وتواضع (٢٣) •

وبعد الانتهاء من تلاوة الارادة الأمبراطورية ، أصدر ملك عدن أمراً الى أهل بلاده يسمح فيه لمن يمتلك سلماً ثمينة أن يبيعها أو يقايضها • وهكذا استطاع الصينيون أن يشتروا الجواهر الكبيرة المسماة « عيون القط » (٢٤) ، التي تزن الواحدة منها حوالي شينين ( ١١٥ قمحة ) وجميع أنواع اليواقيت والحجارة الكريمة النادرة واللآلئ الضخمة ، وكثيراً من جذوع شجر المرجان التي يبلغ طولها شينين ( ٢٤ انش ) • وملأوا خمسة صناديق بأغصان المرجان وأشياء أخرى مثل العنبر الأشهب وماء الورد • وابتاعوا زرائف وأسوداً وحمر الزرد ونموراً مرقطة ونعائم وحمماً أبيض ، ونقلوا جميع ذلك الى الصين •

ويتعمم ملك عدن بعمامة ذهبية ، ويرتدي ثوباً أصفر ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر • وعندما يحل يوم الصلاة (= الجمعة) ويذهب الى الجامع ، ليصلي ، يبدل هندامه ، ويعصب رأسه بعصابة بيضاء ناعمة أجنبية ، ويضع فوقها منديلاً مطرزاً بالذهب • ويرتدي ثوباً أبيض • ويتجه الى الجامع راكباً عربة وتصحبه تجريدة من الجنود •

ولكل من أعيان عدن عمامة وثياب خاصة حسب مكانته الاجتماعية •

ويختلف لباس الرجال في هذه البلاد عن لباس النساء • فالرجال يتعممون ، ويرتدون سحلاً من القطن أو ثوباً من الصوف أو من الحرير القطني المطرز الأنيق أو أمثالها من الأكسية • ويلبسون بأرجلهم جزماً أو أحذية •

أما النساء فيرتدين كساء طويلاً ، ويضعن صفاً من الحجارة الكريمة واللآلئ حول أعناقهن وعلى أكتافهن ، فيشبهن الهة الرحمة كوان يين بلباسهن • ويعلقن بأذانهن أربعة أزواج من الدوائر الذهبية المرصعة بالحجارة الثمينة • ويلبسن خواتم في أصابع أرجلهن ويفطين رؤوسهن بخمار حرير مطرز لا يظهر منه الا وجههن •

وجميع من يصوغ حلي خالصة من الذهب والفضة ويرصعها ، يصنع أروع وأدق المصاغات التي ليس لها مثيل في العالم •

وعندهم أسواق وحمّامات عامة ومطاعم ومخازن تبيع حريراً وأقمشة حرير وكتباً وسائر السلع • وهذه كلها متوفرة لهم •

ويسك الملك عملة من الذهب الأحمر تسمى فولولي (٢٥) ، وتزن القطعة منها شين واحد ( ٥٦ ، ٥٥ قمحة ) ، وترى على ظهرها كتابة واضحة • ويسك أخرى من النحاس تسمى فلوساً من أجل دفع ثمن الصفقات الصغيرة •

ومناخ هذه البلاد حار دوماً مثل مناخ الشهر القمري الثامن والتاسع •

ويحدد أهل عدن الأيام والشهور بلاكبس شهر ، ويقسمون سنتهم الى اثني عشر شهراً • وليس لديهم أشهر طويلة وأشهر قصيرة • ومتى رأى أولو الأمر منهم الهلال في أحد الليالي ، بدأ أول الشهر من اليوم التالي • الا أن تواريخ بدء الفصول الأربعة ليست ثابتة •

ولديهم علماء هيئة يحسبون بدء الفصول • فيحددون مثلاً أحد الأيام لبدء الربيع ، فتتفتح الأزهار فعلاً في ذلك اليوم • ويعيّنون أحد الأيام لمطلع الخريف ، فتساقط أوراق الأشجار فيه • ويحددون بدقة أوقات حدوث الظواهر الجوية والبحرية ، مثل الكسوف والخسوف والمد وهبوب الرياح وهطل المطر والبرد والحر •

أما فيما يتعلق بالأطعمة والأشربة ، فعندهم جميع أنواع دقيق الرز والقمح • ويخلط أناس كثيرون منهم الحليب والقشدة والسمن والسكر والعسل ويأكلون هذا المزيج •

ويتوفر لهم الأرز المقشور وغير المقشور وأصناف الفاصولياء والحبوب والشعير والسمسم وسائر الخضار • أما الثمار ، فعندهم منها أصناف مثل التمور الفارسية والصنوبر واللوز والتفاح والرمان والدراق والمشمش والزبيب والجوز •

ولديهم فيلة وابل وحمير وبغال وثيران وماعز ودجاج وبط وقطط وكلاب • لكن ليس لديهم خنازير أو أوز • وليس لغيرهم قرون ، وصوفه أبيض ، وعلى رأسه هليتان من الصوف الأسود تشبهان خصلتي الشعر على رأس الطفل الصيني - ، وله كيس تحت العنق مثل الثور • وصوفه قصير مثل الكلاب • وذنبه كبير بقدر طست الغسيل •

وتبنى منازل أهل عدن بمداميك الحجارة ، وتسقف بالآجر والتراب • وتشاد أحياناً ثلاثة طوابق من الحجارة يبلغ علوها أربعة أو خمسة شغفات ( ٤ = ٤٠ قدماً و ٩ أنشأت ) • وقد يصنعون هيكلًا خشبياً للطوابق ، يأخذونه عندئذ من الصندل الأحمر المحلي •

وعندهم من الأشجار والنبات ورد ماء الورد وزهور المغنوليا وكرمة الزبيب الأبيض الغالي من البزور •

ولديهم الحمر المحلقة والنعام الأبيض المرقط وغنم بلا قرون ضخمة الالية • وتشبه الحمر المحلقة البغال ، وجسمها ووجهها أبيضان • وتظهر خطوط سوداء دقيقة جداً عند حاجبيها ثم تنتشر على جميع جسمها حتى حوافرها • وتتخذ هذه الخطوط شكل أشرطة متباعدة ، وتبدو وكأن التخطيط الأسود قد رسم فوق الجسم رسماً • وللنعام خطوط سوداء مثل خطوط الحمر الوحشية •

وللزرافة قائمتان أماميتان يزيد طولهما على تسعة شيعات ( ١١٠ انش ) ، وقائمتان خلفيتان طولهما حوالي ستة شيعات ( ٧٣ انش ) • وتحمل الرأس رقبة طويلة طولها شغ واحد وستة شيعات ( ١٦ قدماً و ٣ أنشأت ) • ولا يستطيع الإنسان أن يمتطيها لأن



مقدمتها عالية ومؤخرتها منخفضة • ولها على رأسها قرنان من اللحم ، ولها ذنب ثور ،  
وجسم غزال • وفي حافرها ثلاث أصابع ، وفمها رقيق مسطح • وهي تأكل رزاً غير  
مقشور وفاصوليا وفطائر دقيق •

ولأسدهم جسم يشبه جسم النمر في الشكل ، ولونه أصهب ، بلا تخطيط • ورأسه  
كبير ، وفمه عريض • ويستدق ذنبه تدريجياً حتى نقطة يكتسي فيها بكتلة من الشعر الأسود  
الطويل ، مثل الهلبة • ويشبه صوت زئيره الرعد • وعندما تراه سائر الحيوانات تنبطح  
على الأرض ولا تجرؤ على النهوض • فهو حقاً ملكها •

وكان ملك عدن ممتناً للطف الأمبراطور • فصنع نطاقين من الذهب مرصعين بالجواهر  
ومنديلا ذهبياً مرصعاً باللآلئ والحجارة الثمينة ، إضافة الى اليواقيت وغيرها من  
الحجارة الكريمة وبوقين محليين ، وتذكار للعرش مكتوب على ورق من ذهب • وقدم جميع  
هذه الهدايا لأمبراطور الصين •

#### ٤ - بلاد المربع السماوي (٢٦) أي مكة :

هذه البلاد بلاد مكة • اذا انطلقت السفينة من كولي ( كاليكوت ) ، وسارت في  
الاتجاه الجنوبي الغربي ، تصل ، بعد مضي ثلاثة أشهر قمرية ، الى بندر البلاد الذي  
يسمى جدة • وفي جدة زعيم كبير يديرها • ويذهب المرء الى الغرب (الصحيح الى الشرق)  
ويسير يوماً من جدة ، فيصل الى المدينة التي يسكنها الملك (٢٧) وتدعى مكة •

ويدين أهلها بالاسلام • فقد قام فيها رجل قديس عرض معتقده ونشر تعاليمه فيها •  
ولا يزال أهل هذه البلاد حتى الآن يطبقون مبادئ الاسلام في أعمالهم ، ولا يجيزون  
لأنفسهم أن يحيدوا عنها قيد شعرة •

وهم طوال القامة ، أقوياء البنية ، وسيموا الهيئة ، ولون أوصالهم ووجوههم ضارب الى  
اللون الأرجواني الكامد جداً •

ويتعمم الرجال ، ويرتدون ثياباً طويلة ، ويلبسون أحذية جلدية بأرجلهم • وتلبس  
النساء الحجاب ، ولا يشاهد أحد وجوههن •

ويتكلمون اللغة العربية • ويحظر قانون البلاد شرب الخمر • وتقاليدهم سلمية  
ورائعة • وليس عندهم أسر فقيرة • ويطبقون جميعاً مبادئ دينهم • ولا يخالف القانون الا  
أناس قلائل • فهم يعيشون في الحقيقة في أسعد بلاد •

ويطبقون أصول الدين في طقوس الزواج ودفن الموتى •

واذا استأنف المرء السفر نصف يوم ونيفاً ، وصل الى حرم البيت السماوي ، واسمه  
الكعبة •

ويحيط به جدار له ٤٦٦ باباً ، وعلى جانبي الأبواب ، ترتفع عواميد مصنوعة من  
اليشب بكاملها وعددها ٤٦٧ عموداً ، منها ٩٩ في الواجهة ، و ١٠١ في الخلف ، و ١٣٢  
على اليسار ، و ١٣٥ على اليمين .

وقد بُني البيت بمداميك من خمسة أحجار ملونة . وشكله مربع وأعله مسطح .  
وفي داخله تتألف الأعمدة من خمسة أسهم كبيرة من العود الثقيل ومن رف من الذهب الأصفر .  
وقد بنيت كل الجدران من غضار ممزوج بماء الورد والعنبر الذي يفوح منه عير دائم .  
وتغطي البيت كسوة من الحرير .

وفي كل سنة ، في اليوم العاشر من الشهر الثاني عشر القمري ، يأتي مسلمون غرباء  
— بعد سفر طويل يستغرق سنة أو سنتين في حالات قصوى — ويحجون البيت ويصلُّون  
فيه . ويقتطع كل حاج قطعة من الكسوة تذكّاراً قبل أن يعود إلى بلده . وعندما تخلص  
الكسوة توضع كسوة جديدة محلها تجهز من قبل . ويحدث ذلك عاماً بعد عام على مر  
الزمن .

ويقع قبر اسماعيل على يسار البيت ، وهو من أولياء الله . وقبره مصنوع كله من  
الزمرد الأخضر . وطوله شغ واحد وشيخين ( ١٢ قدماً وانشان ) ، وعلوه ثلاث شيعات  
( ٣٦٧ انش ) وعرضه خمس شيعات ( ٦١٢ انش ) . ويحيط بالقبر جدار مبني من  
مداميك من التوباز الأرجواني يبلغ علوها خمسة شيعات ونيفاً ( ٦١٢ انش ) .

وبنيت أربع مآذن في زوايا البيت الأربع . ويصعد المؤذنون في أوقات الصلاة إليها وينادون  
على الصلاة ويؤذنون . وتقع أروقة الأئمة الأربعة على جانبي الحرم على اليمين وعلى  
اليسار . وهذه الأروقة مبنية أيضاً من مداميك حجارة ومزخرفة على أجمل وجه .

أما مناخ هذه البلاد فحار في الفصول الأربعة مثل الصيف . وليس فيها مطر ولا برق  
أو صقيع أو ثلج . إلا أن الندى غزير جداً في الليل ، وتعتمد جميع النباتات والأشجار  
عليه في حياتها . ولو وضع المرء وعاء فارغاً في الليل وأبقاه حتى الفجر ، فسوف تبلغ فيه  
سماكة الماء ثلاث فئات ( ٣ ر . انش ) .

أما فيما يختص بمحاصيل الأرض فالأرز والحبوب نادرة . ويزرع جميع الأهالي الأرز والقمح والدخن  
واليقطين والخضار والبطيخ الأخضر والأصفر ، ولا بد من شخصين أحياناً لنقل البطيخة  
الواحدة . وعندهم أيضاً نوع من الشجر زهره مفتول ، يشبه شجر التوت الكبير في  
الصين ، وعلوه شغ أو اثنتان ( شغ = ١٠ أقدام وانشين ) . ويزهر هذا الشجر مرتين  
في العام . ويعمر طويلاً قبل أن ييبس . ومن محاصيلهم اللفت والتمر الفارسي والرمان  
والتفاح والاجاص الكبير والدراق . ويزن بعضه أربعة شينات أو خمسة ( ٤ = ٢ ر ه  
ليبرة ) .

ولديهم كثير من الابل والخيول والحمير والبغال والثيران والماعز والقطط والكلاب  
والدواجن والأوز والبط والحمام . ويزن بعض الدجاج والبط أكثر من عشرة شينات  
( ١٠ = ١٣ ر ه ليبرة ) .

وعندهم ماء ورد وعنبر وزرائف وأسودونعام وغزلان ووشق وأصناف الحجارة الكريمة واللآلئ والمرجان .

ويسك الملك من الذهب عملة تنكا الشائعة في التداول . ويبلغ قطر القطعة الواحدة منها سبع فئات ( ٠.٨ انش ) ، ووزنها شين واحد ( ٣٧٣ غرام ) . وإذا قارناها بذهب الصين فهي أنقى منه بنسبة ٠.٢٠ ، .

وإذا ذهب المرء الى جهة الغرب ، وساريوماً واحداً ، وصل الى بلدة اسمها المدينة ( الاتجاه والمسافة خطأ : ٣٠٠ ميل وعشرة أيام ) . وفيها قبر النبي محمد . ويرتفع من القبر حتى اليوم ليلاً نهاراً ، نور ساطع ، يخرج من أعلاه ويدخل في السحاب . وتقع وراءه بئر فيها ماء عذب ، تسمى زمزم ( زمزم في مكة لا في المدينة ) . ويأخذ السفار هذا الماء ويختزنونه في مراكزهم . فإذا أصابهم أعصار في البحر ، رشوا منه فوق الماء ، فتسكن الرياح والأمواج .

وفي العام الخامس من حكم الإمبراطور هسوان ، وصل أمر من البلاط يأمر المبعوث الرئيسي شنغ هو كبير الخصيان أن يذهب الى جميع البلدان الأجنبية ليتلو أوامر الإمبراطور ويسلم هداياه .

وعندما وصل قسم من الأسطول الى كاليكوت ، لاحظ كبير الخصيان هونغ أن سقّار مكة يصلون الى كاليكوت ، فاخترار ترجماناً وسبعة سفراء آخرين ، وأرسلهم الى مكة مع حمل من المسك وأصناف خزف وأشياء أخرى . وصعد المبعوثون في مركب مكة وقصدوها . وأستغرقت سفرتهم سنة كاملة ذهاباً وإياباً .

واشتري الصينيون جميع أصناف الحاجات والنفائس ، منها الزرائف والأسود والنعام . ثم انهم رسموا صورة دقيقة للحرم الشريف وعادوا الى عاصمتهم بكين .

وأرسل ملك بلاد مكة مبعوثين حملوا معهم سلماً محلية ، ورافقوا المبعوثين الصينيين السبعة ، الذين جاؤوا الى مكة ، وقدّم سفراء مكة هداياهم الى البلاط الصيني في الصين . «

رابعاً - أقوال ماهوان عن العرب والمسلمين خارج جزيرة العرب :

آ - في بلاد كاليكوت ( ٢٨ ) :

« وفي خدمة الملك زعيمان مسلمان يديران شؤون البلاد .

وتدين أكثرية أهل هذه البلاد بالاسلام . وعندهم عشرون أو ثلاثون مسجداً يؤمنونها للصلاة مرة في الأسبوع . ومتى حل يوم الصلاة ، تصوم كل الأسرة ، وتتوضأ ، ولا تعمل شيئاً آخر . ويذهب الرجال والشباب الى الجامع ليصلّوا قبل الظهر وبعده . ويتفرقون بعد صلاة الفجر ، ويعودون الى منازلهم . ثم يزاولون أعمالهم التجارية ويديرون شؤونهم البيتية .

- وهؤلاء الناس شرفاء وأهل للثقة • ويتميزون بأنافتهم ونعمتهم ولباقتهم •
- وتلقى الزعيمان المسلمان ترقية وهبات من بلاط البلاد الوسطى ( الصين ) « •

#### ب - في جزر مالديف ولاكديف (٢٩) :

- « وفي بلاد نيه كان ( مالديف ولاكديف ) السلطان والزعماء والسكان مسلمون •
- وعاداتهم طاهرة وممتازة • وبالتالي ، يطبقون حدود دينهم ••• ويتقيدون بمبادئه في طقوس الزواج والمآتم » •

#### ج - في كشي (٣٠) :

- « وفي هذه البلاد خمس فئات من السكان ••• الفئة الثانية المسلمون ••• وتتبع كل فئة طقوساً خاصة بها في الزواج والمآتم حسب معتقداتها الدينية » •

#### د - في جزيرة شمطرة :

- « وفي سيموديرة العادات طاهرة وشريفة ، ويشبه كلامهم وكتاباتهم وزواجهم ومآتمهم ولباسهم ، ما هو شائع في ملاقة (٣١) •

- « ويشبه كلام هذه البلاد - ناقور - وعاداتها ما هو شائع في ملاقة » (٣٢) •

- « والعادات في هذه البلاد - عاروه - طاهرة وبسيطة • وطقوس الزواج والمآتم وسائر النواحي شبيهة بما هو شائع في جاوة وملاقة » (٣٣) •

- « وتسكن ألفا أسرة ونيف في هذه البلاد - لمبري - وجميعهم مسلمون وشرفاء جداً وأذكاء ••• وملكهم مسلم أيضاً » (٣٤) •

#### هـ - في بلاد ملاقة :

- « وملك هذه البلاد وسكانها مسلمون ، يصومون ، ويكفرون عن ذنوبهم ، وينشدون المدايح النبوية » (٣٥) •

#### و - في بلاد جاوة :

- « في هذه البلاد ثلاث طبقات • احداها طبقه المسلمين » (٣٦) •

هذا ما ورد على لسان ماهوان عن العرب والمسلمين في مطلع القرن الخامس عشر وهو غيظ من فيض • ففي المصادر الصينية الأخرى المزيد من هذه الأخبار التي تدل على انتشار حضارتهم وتقبل الشعوب لها • وهذه ناحية جديرة بالاهتمام والدراسة ومحاولة وصل الماضي بالحاضر •

ابراهيم خوري

## □ الحواشي :

- ١ - لم يميز الصينيون البحر عن المحيط في القرون الوسطى . لكنهم قسموا البحار في جنوب بلادهم ، الى محيط غربي ، وآخر شرقي ، يفصل بينهما خط متعرج يمر بجزيرة تاتان ( طول ١١٨ ٠٩ شرقا ) قرب مدخل بندر هسيامين (اموي) ، وفي برونيي ( طول ١١٤ ٥٦ شرقا على ساحل جزيرة بورنيو الغربي ) ، وفي جزيرة بليتونغ ( طول ١٠٨ ٢٠ شرقا ) ، والى شرق باجاجران في غرب جزيرة جاوة ( طول ١٠٦ ٥٨ شرقا ) ويضيفون اليهما المحيط الجنوبي . فالمحيط الغربي يعرف لديهم أيضا باسم المحيط الجنوبي الغربي ، ويغمر الشواطئ الشرقية من آسيا القارية من تونكين الى جوهور ، وشاطئ باجاجران ، وشواطئ شمطرة الجنوبية والشرقية والشمالية ، وسيلان وكيلون وكاليكوت وبلاد العرب وبمبا . ( في القرن الثاني عشر ، كان بحر العرب يدعى بحر العرب الشرقي . وكانت حوضه البحر المتوسط الشرقية تسمى بحر العرب الغربي ، وقد أهملت هاتان التسميتان في القرن الخامس عشر ) . ويمتد المحيط الشرقي في عرفهم حتى اليابان ، ويدعى الى جنوبها المحيط الجنوبي الشرقي ، الذي يغمر شواطئ جزر ريوكيو ، وكييلونغ في فرموزة - تايوان - ، وبنغاستان قرب شاطئ جزيرة لوسون الغربي ، وجزر الملوك ، وبرونيي على ساحل بورنيو الغربي ، وجاوة ما عدا باجاجران . وكان مضيق فورموزة يسمى المحيط الشرقي الصغير ، والبحر الى شرق جاوة المحيط الشرقي الكبير . وكانوا يجعلون المحيط الجنوبي على تغوم المحيطين الغربي والشرقي ، ويمدونه شمالا حتى شمبا ، وشرقا حتى جزيرة لوسون ، وجنوبا حتى بالمبانغ . أما بعد هذه الاخيرة ، فيمتد المحيط الجنوبي الكبير بالآلاف جزره ومنها جزيرة جاوة .
- ٢ - جاء في أخبار الصين والهند ، ص ١٧ ، فقرة ٣٦ : « والفقر والغني من أهل الصين ، والصغير والكبير ، يتعلم الخط والكتابة » . وورد في ص ٢١ فقرة ٤٨ : « وفي كل مدينة ككتاب ومعلم للفقراء وأولادهم . من بيت المال يأكلون » .
- ٣ - كانت الرحلة من كاليكوت الى جدة تستغرق ثلاثة أشهر بالرياح المولمة ، وهذا معروف عند أهل البحر . وبقيت البعثة ثلاثة أشهر في مكة : من صفر الى جمادى الأولى . وهذا يعني أن جميع أعضائها كانوا مسلمين .
- ٤ - يعود رهمانج فاسكوداغاما الى عام ١٤٩٨ ، وانتهاء ابن جزى من تدوين رحلة ابن بطوطة الى ١٣٥٦ ( تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ) ، وكتاب وانغ - تا - يو وان ، المسمى « تاو - اي - شيه - لويه » الى ١٣٥٠ ، وكتاب فيبي - هسين ، « الكامل في وصف سفينة الكوكب » الى ١٤٣٦ ( تاريخ المقدمة ) ، وكتاب كونغ شن ، « مدونات البلدان القريبة في المحيط الغربي » الى ١٤٣٤ ( تاريخ المقدمة ) . أما البندقي نيكولو دي كونتي ، فقد غادر بلده سنة ١٤١٩ ، وأقام في دمشق بعض الوقت ثم سافر الى جنوب آسيا ، وعاد الى ايطالية سنة ١٤٤٤ ، وأملى أخباره على بوجيو براسيوليني ، أمين سر البابا أوجينيوس الرابع ، الذي دونها باللغة اللاتينية . أخيرا سجل ابن ماجن علم البحر سنة ١٤٦٦ م في حاويته .
- ٥ - ج . ف . ج . ميلز ، « الكامل في وصف سواحل المحيط ل ماهوان ، ص ١٠ وما يليها .
- ٦ - المرجع ذاته ، ص ٢٧ .
- ٧ - المرجع ذاته ، ص ٢٢ .
- ٨ - يقول المسعودي ( ج ١ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ) : « وكان الفرات ، الأكثر من مائه ، ينتهي الى بلاد الحيرة ، ونهرها يبتن الى هذا الوقت وهو يعرف بالعتيق ، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم ، وهي وقعة القادسية ، فيصب في البحر الحبشي ( بحر الهند ) . وكان البحر حينئذ في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت ، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند ، ترد الى ملوك انجرة . وقد ذكر ما قلنا عبد المسيح بن عمرو بن بقليلة الفساني حين خاطب خالد بن الوليد في أيام أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، قال له : ما تذكر ؟ قال : أذكر سفن الصين وراء هذه العصور . فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر برا ، فصار بين الحيرة وبين البحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة . ومن رأى النجف وأشرق عليه تبين له ما وصفنا » .
- ٩ - ويقول أيضا في ص ١٥٨ - ١٥٩ : « وانحدر الى البصرة ، وركب البحر حتى أتى الى بلاد عمان ، وركب الى بلاد كلة ، وهي النصف من طريق الصين او نحو ذلك . واليها

١٣- بعد احتلال المغول لبلاد فارس ، تحولت طريق التجارة الرئيسة من الهند الى بحر الروم ، من خليج العرب الى بحر القلزم . ومع ذلك ، ظلت السلع الاسيوية تنقل من هرموز الى تبريز وطرايزون وسمرقند .

١٤- كانت ظفار مدينة على ساحل جزيرة العرب الجنوبي ، وهي الآن مقاطعة . وكانت مدينة القرون الوسطى تقع في المحل المسمى البلد ( عرض ١٧٠٠ شمالا ، وطول ٥٦ ، ٥٤ شرقا ) على حوالي ميلين من سلالة التي تعتبر أعظم مركز تجاري . ويمتد سهل ظفار على الساحل على طول ٢٧ ميلا من درجة طول ٥٦ ، ٥٣ الى ٢٥ ، ٥٤ شرقا . وكانت تشكل سلطنة صغيرة مستقلة في القرن الخامس عشر ، لكن لم تلعب دورا سياسيا وانحصرت أهميتها التجارية في تصدير الغيول العربية المطهمة والبخور . وهي مركز تجارة اللبان .

١٥- سفر سريع ، تقطع فيه السفينة ١٢٤ ميلا في اليوم ؟؟

١٦- اللبان صمغ أشجار قصيرة لا تنمو في جزيرة العرب الا في ظفار .

١٧- دم الاخوين صمغ شجرة تنمو في جنوب جزيرة العرب وافريقية الشرقية .

١٨- قام الغصي هونغ باو عام ١٤٢٢ م/ ٨٢٦ هـ باول زيارة صينية رسمية الى ظفار أثناء حملة شنغ هو السادسة .

١٩- عدن بندر اليمن على ساحل جزيرة العرب الجنوبي ، عرضها ٤٧ ، ١٢ شمالا ، طولها ٥٩ ، ٤٤ شرقا . لها ميناء ممتاز وموقعها على مفترق الطرق البحرية ، وتتمتع بمدخل البحر الاحمر وبطرق قوافله نحو الشمال . لذلك كله كانت مستودعا طبيعيا لبضائع التجار التي ترد اليها من افريقية الشرقية وآسية والى مضيق باب المندب وبحر القلزم منذ أقدم العصور . وكانت في مطلع القرن الخامس عشر المرفأ الرئيس على الطريق البحرية الذاهبة من بحر الروم الى الهند والشرق الأقصى ، وتمتعت بازدهار عظيم في عهد بني رسول ( ١٢٢٩ - ١٥٥٤ م ) في اليمن ( عاصمتهم تعز ) . وكانت قوة عدن هائلة ، وكان حاكمها يحكم جزيرة العرب الجنوبية الغربية حتى مكة ، وينازع ممالك مصر على السيطرة على مكة .

٢٠- أي انها تقطع ما يعادل ٦٢ ميلا بحريا في اليوم الواحد .

تنتهي مراكب أهل الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت ، فيجتمعون مع من يرد من أهل الصين في مراكبهم . وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة . وكذلك كانت المراكب تختلف من المواضع التي ذكرنا الى ما هنالك . ولما عدم العدل وفسدت النيات ، وكان من أمر الصين ما وصفنا ، التقى الفريقان جميعا في هذا النصف . ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة في مراكب الصينيين الى مدينة خانقوه وهي مرسى المراكب على ما ذكرنا .

١٠- يقول المسعودي عن خانقوه ( ج ١ ، ص ١٥٦ ) : وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة ، يصب الى بحر الصين . وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة . تدخل هذا النهر سفن التجار السواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك بالامتعة والجهاز ، وتقرب الى مدينة خانقوه . وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس . وورد في ص ١٦١ : « وخرج هذا الرجل ( القرشي ) من مدينة سيراف وكان من أرباب البصرة وأرباب النعم بها وذوي الاحوال الحسنة . ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند ، ولم يزل يتحول من مركب الى مركب ، ومن بلد الى بلد ، يخترق ممالك الهند ، الى أن صار الى بلاد الصين ، فصار الى مدينة خانقوه » .

١١- كانت مدينة هرموز واقعة في درجة عرض ٠٣ ، ٢٧ شمالا ودرجة طول ٢٧ ، ٥٦ شرقا ، على جزيرة تسمى جزيرة هرموز قرب مدخل خليج فارس . وكان أمير الأسرة المالكة فيها تابعا لحاكم فارس ( الولاية ) نظريا . وكان يدفع أتاوة الى السلطان شاهرخ ( ١٤٠٥ - ١٤٤٧ م ) ، ملك الامبراطورية التيمورية التي ضمت فارس . أما عمليا ، فقد كان أمير هرموز مستقلا وقويا ، وتمتد سلطته على مائة ميل حول هرموز ، ونفوذه أوسع بكثير . وكانت هرموز مركزا تجاريا عظيما ، تنتهي اليه التجارة البحرية من الشرق الأقصى والهند والتجارة البرية من خراسان والعراق وفارس . وكانت فيها أرستقراطية مدنية وعسكرية غنية .

١٢- المسافة ٦١ ميلا بحريا . في عام ١٤٣٧ - ١٤٣٣ ، استغرق اسطول شنغ هو ٣٤ يوما ليبلغها أي انه سار بسرعة ٤٥ ميلا بحريا في اليوم .

لهذه البلاد قيمة اقتصادية • الا أن الحج مناسبة لاجراء  
مبادلات تجارية • وجاء في معجم البلدان الكعبة البيت  
المربع •

٢٧- عندما ذهبت البعثة الصينية من كاليكوت الى مكة عام  
١٤٣٢ م/ ٨٣٦ هـ ، كان شريف مكة بركات بن حسن  
( ١٤٢٥ - ١٤٥٣ م ) ، وكان يتلقى كل سنة كتاب تعيينه  
وكسوته من مصر •

٢٨- ميلز ، ص ١٤٠ •

٢٩- المرجع ذاته ، ص ١٤٩ • لعل سلطان ملي كان الحاج  
حسين • اعتنقت هذه الجزر الاسلام منذ القرن  
الثاني عشر •

٣٠- ميلز ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ •

٣١- ميلز ، ص ١١٩ •

٣٢- المرجع ذاته ، ص ١٢١ •

٣٣- المرجع ذاته ، ص ١١٤ •

٣٤- المرجع ذاته ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ •

٣٥- المرجع ذاته ، ص ١١٠ •

٣٦- المرجع ذاته ، ص ٩٣ •

٢١- تاريخ الامر الاميراطوري ٣ آذار عام ١٤٢١ م/ ٨٢٥ هـ •

٢٢- سمودة على شاطيء شمطرة الشمالي •

٢٣- كان مماليك مصر قد فرضوا سيطرتهم على نصف بحر  
القلزم ، ولعل ترحيب السلطان اليمني بالصينيين تابع من  
الرغبة باكتساب حليف يحتمل الاستفادة منه اذا اراد  
المصريون أن يتوسعوا في فرض هيمنتهم •

٢٤- حجارة كريمة صفراء وخضراء •

٢٥- اسم فارسي للعملة الذهبية • يستعمله الأتراك ليدلوا  
على الدوكا البنديقية •

٢٦- يشير الاسم الصيني الى الكعبة أو « البيت المكعب »  
فمكة مدينة الاسلام المقدسة ، التي يزورها الحجاج من  
جميع أنحاء العالم ، وتقع على حوالي ٥٥ ميلا الى شرق  
مرفأ جدة • عرضها ٢٩ ، ٢١ شمالا ، وطولها ١١ ، ٣٩  
شرقا • وكانت المنطقة بكاملها تدعى مكة ، وتمتد الى  
حوالي ٣٠٠ ميل شمالا الى المدينة ٣٥ ، ٢٤ شمالا (   
وينبع ( ٥٤ ، ١٦ شمالا ) وحوالي ٣٠٠ ميل أيضا حتى  
جيزان ( ٥٤ ، ١٦ شمالا ) • وكان شريف مكة في هذا الوقت  
تابعاً لسلطان مصر ( المماليك ) • ولم تكن له أهمية  
سياسية ، لكنه كان يدير الحجاز بسلطة الدين • وليس

